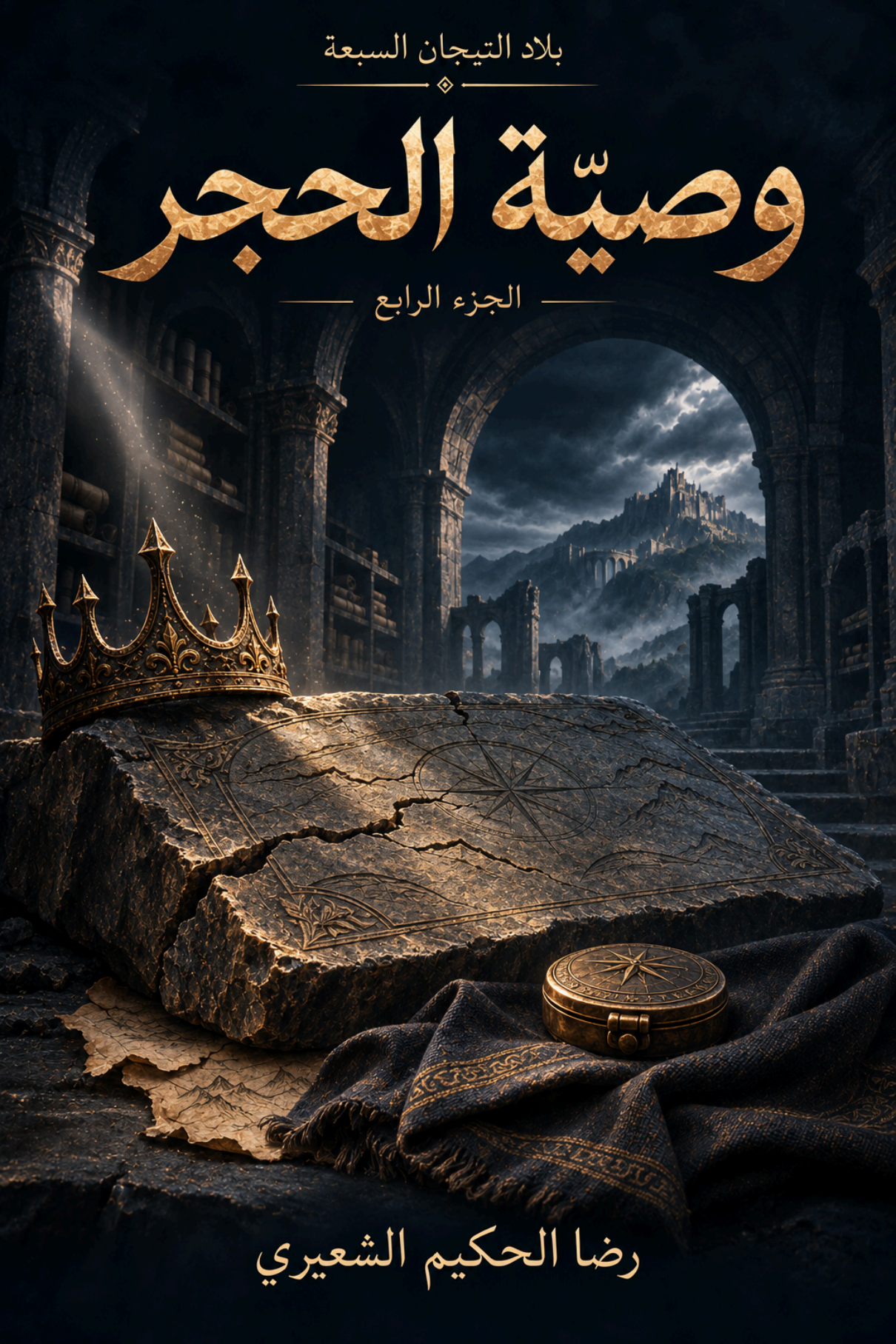
بلاد التيجان السبعة
وصيّة الحجر
الجزء الرابع
رضا الحكيم الشعيري

بلاد التيجان السبعة

وصيّة الحجر

الجزء الرابع

رضا الحكيم الشعيري

كان الرجل فوق البرج يتحرك كلما اختفى وراءه طرف الشراع.

لم ينتبه نائل إليه أول مرة. حسبه قطعة قماش عالقة في أعلى البناء، ثم رأى اللمعة القصيرة التي ظهرت قرب كتفه، ورأى الذراع ترتفع لتستقر فوق حافة الحجر.

قال، وهو يشير من تحت الحبل:

«هناك أحد.»

رفعت نيرفا رأسها. كانت جالسة إلى جوار الصارية، وساقها ممدودة فوق رداء مطوي. تتبعت إصبعه، ثم قبضت على حافة المقعد وانخفضت حتى حجبها جانب السفينة. سحبت غطاءها فوق شعرها، وراقبت البرج من الفرجة بين لوحين.

«لا ندخل ذلك المرسى.»

خفف أوران الشراع. مال القماش، فمالت السفينة معه، وانزاح البرج قليلًا عن مقدمتها.

سأل نائل:

«من جنود قاسران؟»

«لا أميز ألوانه من هنا.»

نظرت إلى الشاطئ مرة أخرى، ثم أضافت:

«لكن الطريق الذي يصعد منه يمر بنقطة تفتيش. إن رأوا وجهي فلن يسألوا عمّا نحمله من أخبار.»

تحرك رفال عند باب المقصورة. كان قد خرج قبل قليل وأصر على الجلوس حيث يرى البر، لكنه لم يستطع رفع نفسه إلا بعد أن أسند كفيه إلى الخشب. أغمض عينيه وهو على ركبتيه، ثم أعاد ظهره إلى الباب.

تناول رائف القدح من جواره قبل أن ينقلب.

«أردت أن أعرف إن كنا وصلنا.»

قالها رفال بصوت خشن، وحاول ابتسامة لم تكتمل. كانت أصابعه أقل انتفاخًا مما كانت عليه عند مغادرة رهفان، لكنه ما زال يضمها ببطء، إصبعًا بعد إصبع، كأنه يختبر إن كانت ستطيعه.

قال أوران:

«وصلنا إلى الساحل. بقي أن نجد موضعًا ينزل منه الجميع.»

في تلك اللحظة رفعت إيسا يدها السليمة.

كانت واقفة عند المقدمة، وقد أدخلت ذراعها الأخرى في حمالة صنعها رائف من قطعة قماش. مالت إلى الخارج مقدارًا جعل نائل يمد يده إلى حزامها، لكنها عادت قبل أن يبلغها.

«اتبع هذا الماء.»

لم ير نائل سوى سطح داكن تتكسر عليه خطوط الضوء. وراءه كان البحر أفتح لونًا، ترفعه الريح إلى رؤوس صغيرة بيضاء.

«أي ماء؟»

«الذي لا ينكسر.»

انتظر حتى هبطت السفينة. ظهر شريط ضيق يمتد بمحاذاة الجرف، ثم ينحرف عند صخرتين تكاد إحداهما تحجب الأخرى.

أدار أوران الدفة نحوه.

قالت نيرفا من خلف الحافة:

«لا يوجد مرسى هناك.»

«يكفينا أن يسترنا الصخر الليلة.»

اقتربت إيسا من جانب السفينة، تتبع الشريط بعينيها. كانت الشمس قد نزلت خلف المرتفعات، ولم يبق من ضوئها على الماء إلا ما يصل من الفتحة الغربية. كلما تقدموا ضاقت الفتحة، وازدادت الصخور سوادًا.

«أبطئ هنا. لا تترك التيار يدير المؤخرة.»

أمسك نائل بالحبل الذي أشار إليه أوران، وساعده رائف على جمع الشراع. حين اختفى آخر طرف من القماش فوق رأسيهما، سمعا احتكاك الماء بالهيكل أوضح مما سمعاه طوال النهار. لم يعد البرج ظاهرًا.

تقدمت السفينة بين الصخرتين. وراءهما انفتح جيب صغير في الجرف، عميق في وسطه، وعلى جانبه شريط حصوي لا يتجاوز عرضه بضع خطوات. كانت صخرة قائمة عند أقصاه مشقوقة من أعلى إلى قرب الماء. من البحر لم ير نائل الشق؛ أما الآن، وقد صارت الصخرة خلف كتفه، فقد بدا كفتحة باب رفيعة.

أشارت إيسا إليها.

«تذكرها من هذا الجانب. الصخرتان عند المدخل تتشابهان إذا عدنا في الظلام.»

ربطوا السفينة إلى نتوء منخفض لا يظهر فوق خط الجرف. طلبت إيسا أن يُرخى الحبل قليلًا، ثم راقبت ارتفاع الهيكل وهبوطه مرتين قبل أن توافق على النزول.

قالت:

«خذوا الماء وما نستطيع حمله. بعد قليل لن نرى أين نضع أقدامنا.»

نزل أوران أولًا، ثم ناوله نائل الحقيبتين. انتظر رفال حتى فرغوا من إنزال المؤن. وضع قدميه على الدرجة، وحاول أن ينهض قبل أن يمد أحد يده إليه.

خانته الركبة الأولى.

أمسكه نائل من تحت إبطه، فاصطدم رأساهما، وخرج من رفال سباب مكتوم. كاد نائل يضحك من المفاجأة، لكنه شعر بارتجاف جسد الشاب على ذراعه.

«اتكئ عليّ.»

«أنا متكئ.»

«بوزنك كله.»

نظر رفال إلى الماء تحت السلم، ثم أرخى كتفه أخيرًا.

على الشاطئ جلست نيرفا لحظة لتشد الرباط حول ساقها. أدخلت يدها تحت ثوبها تتحسس شيئًا عند صدرها، ثم أخرجتها لتثبت غمد السيف إلى جانبها. رأى رفال الحركة وهو يستند إلى الصخر، وخفض عينيه إلى كفيه.

لم يتكلما.

حمل رائف بعض متاع إيسا، وأخذ نائل قربة إضافية. كانت السفينة وراءهم قد اختلطت بظل الجرف؛ لم يعد يرى منها إلا الحافة التي تلمع حين يرفعها الماء.

قال أوران:

«لا نشعل نارًا هنا.»

تطلع نائل إلى المنحدر. لا بيوت، ولا أرض مستوية تتسع لنومهم، ولا ماء عذب سمعوا جريانه. بقيت فوقهم بقعة من الضوء على شجيرة قصيرة، ثم انطفأت حين تحرك ظل الجبل.

تقدم ليختبر موضعًا يصعدون منه. انزلقت قدمه على الحصى، فوضع كفه على الأرض، ورأى أثر نعل في التراب الرطب تحت صخرة ناتئة. كان الماء قد محا طرفه السفلي، لكن خطوط الجلد ظهرت واضحة في أعلاه. وإلى جانبه أثر آخر يصعد بعيدًا عن الشاطئ.

رفع رأسه. وراء الشجيرة المتدلية كان غصن مكسور موضوعًا فوق غصنين صحيحين. أزاحه، فانكشف فراغ ضيق بين الصخور، وفيه عشب انثنى في اتجاه واحد.

نادى أوران بصوت منخفض.

تفحص الرجل الأرض، ثم نظر إلى الأعلى.

«استُعمل بعد المطر الأخير.»

قالت نيرفا:

«وقد يستعمله من لا نريد لقاءه.»

التفت نائل إلى رفال، الذي كان يضغط كفيه بين ركبتيه، وإلى إيسا وهي تحاول تعديل الحمالة بأسنانها.

«هل عندنا موضع أفضل؟»

لم تجبه نيرفا. نهضت واختبرت ساقها، ثم أشارت إليه أن يتنحى عن المدخل حتى تمر قبله بضع خطوات.

قال أوران:

«نبقى قريبين. لا يصعد أحد وحده.»

أعاد رائف الغصن بعد مرورهم. وعندما بلغ نائل أول انعطافة، نظر خلفه إلى الخليج. لم ير السفينة. رأى فقط شق الصخرة، وقد احتفظ بخيط من ضوء السماء.

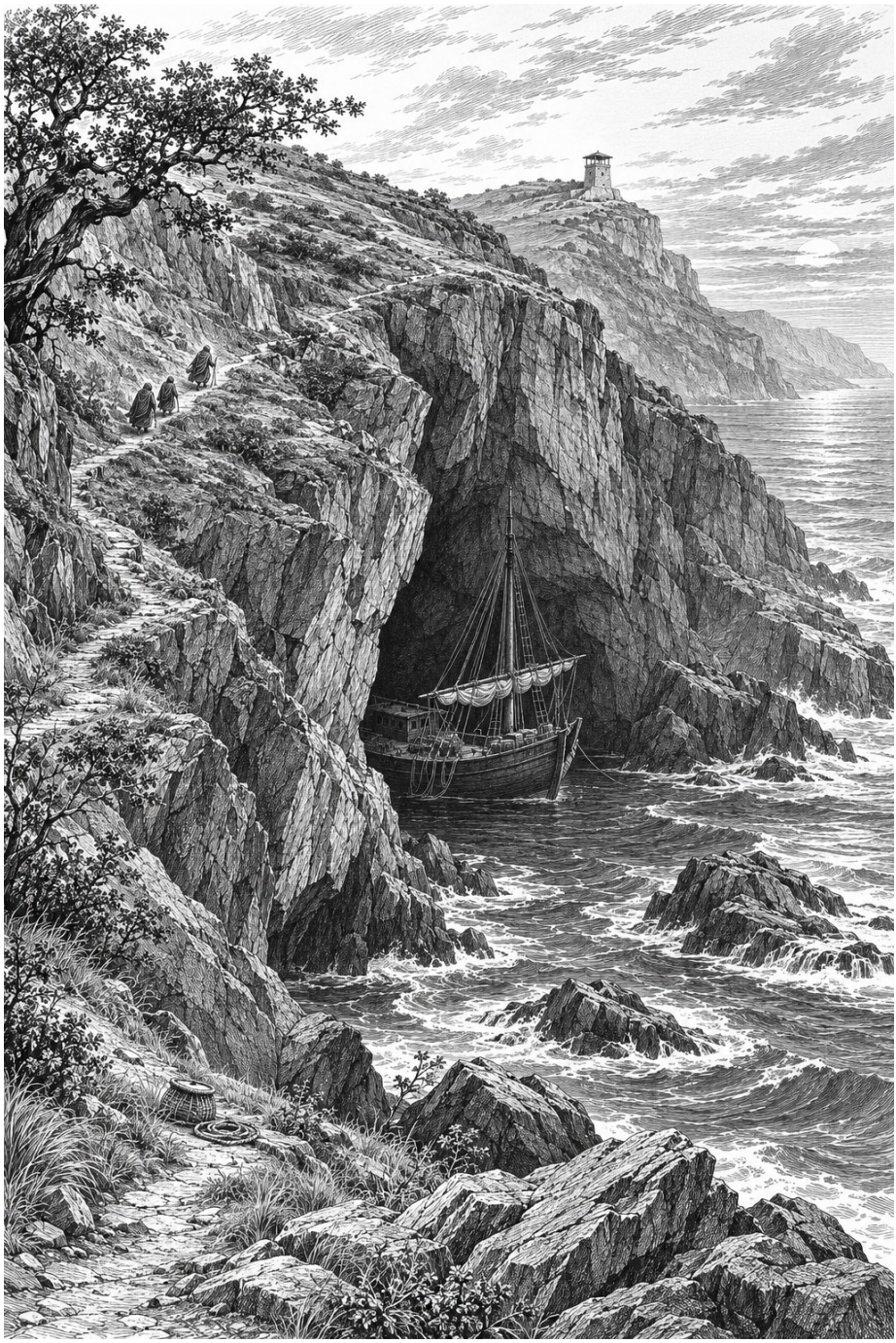

⁂

في الأيام التي سبقت وصول السفينة إلى ذلك الخليج، وجد سايرن سيراي في الرواق المطل على الساحة الداخلية بتيرافا.

كانت تقرأ رسالة قرب النافذة، وإلى جانبها مصباح لم يُشعل بعد. رفعت عينيها إلى كتفه قبل وجهه، فرأت رداء السفر مطويًا على ذراعه.

وضعت الرسالة على الحافة.

«حددت يومًا.»

«غدًا.»

ضغطت بأصابعها على طرف الورقة.

«وقد جئت.»

«قلت إنني سأفعل.»

تحركت قليلًا لتترك له موضعًا عند النافذة. في الأسفل كان رجل يجر دابة محملة بأكياس العلف. توقفت الدابة عند القوس، واضطر إلى العودة كي يفك حبلًا علق بحلقة في الجدار.

قالت سيراي:

«هل جاءك رد؟»

أخرج سايرن ورقة صغيرة من داخل ردائه. كانت مطوية حتى صار وسطها لينًا أبيض. لم يفتحها؛ مرر إبهامه على الحافة، ثم أعادها.

«وصلت رسالتي. ستنتظرني.»

«أختك أم الملكة؟»

نظر إليها، فخفضت عينيها عن وجهه.

«آمل أن ألقى أختي أولًا.»

ارتفعت من الساحة صرخة الرجل بالدابة، ثم صوت الأكياس وهي تحتك بالقوس. تابعت سيراي الحركة حتى عبرا، وقالت:

«لا أعرف ماذا أطلب منك. أن تبقى لا يحق لي، وأن تحذر ستسمعها من كل من يودعك.»

«اطلبي ما تريدين.»

التفتت إليه هذه المرة.

«خبرًا منك حين تصل. لا خبرًا عنك.»

لم يجب بسرعة. رأى يدها تنقبض على حافة الحجر، ثم تسترخي.

«سأرسل.»

مدت يدها إلى رداء السفر. كان أحد أربطته قد انفك من موضعه، فأدخلته في الحلقة وشدته. لم تكن العقدة تحتاج كل ذلك الوقت، ولم يتحرك حتى انتهت.

«دارِن يعرف الطريق إلى الرسول؟»

«يعرف.»

تركت الرباط.

عند باب الرواق توقف سايرن. كانت قد التقطت الرسالة مرة أخرى، لكنها لم تنظر فيها. رفع يده، فبادلته حركة صغيرة، ثم خرج قبل أن يضطر إلى اختراع شيء آخر يقوله.

بعد أيام، عند أول معبر استعادته قوات قاسران، أوقفه الحراس مرتين. في الثانية انتظر حتى حضر قائدهم، ورأى الرجل يحدق في وجهه طويلًا قبل أن يخفض السلاح.

لم يطلب منه سايرن أن يعتذر. سأله عن الطريق، وعن عدد الرجال في النقطة التالية، ثم واصل الركوب.

كانت ميرافا تقيم في دار حجرية داخل نطاق تحرسه وحدات متفرقة. عند بوابتها وجد عربات محطمة تُفرغ حمولتها في عربات أصغر، وخيولًا تأكل من أكياس معلقة إلى رؤوسها. لم يسمع أبواق استقبال. سمع رجلين يتجادلان حول محور مكسور، وصبيًا يسأل أين يضع الماء.

قادته امرأة عبر غرفة فيها أسرّة متقاربة. على أحدها جندي نائم وحذاؤه تحت رأسه. ثم فتحت بابًا وتركت سايرن يدخل وحده.

كانت ميرافا واقفة خلف طاولة. رفعت رأسها عند صوت الباب. انزلقت ورقة من تحت يدها ولم تلتقطها.

لم يقل شيئًا.

تقدمت خطوتين، ثم توقفت على مسافة ذراع. رفعت يدها إلى خده ولم تمسه أولًا؛ لمست طرف الجرح قرب فكه، وخفضت أصابعها كأنها خشيت أن تؤلمه.

«وصلت الرسالة.»

«عرفت.»

«رأيت العلامة قبل أن أقرأ الكلام.»

هز رأسه.

كانت علامتهما القديمة صغيرة في أسفل الورقة، كما طلب من حاملها أن يوصلها. حين رسمها لم يعرف إن كانت ستذكرها. الآن رأى الورقة على الطاولة، مفتوحة بين أوامر التموين.

«كم مرة فكرت أنك لست أنت؟» قالت. «وكم مرة غضبت لأن أحدًا عرف كيف يجعلني أصدق؟»

حاول أن يجيب، لكنها أمسكت بردائه وجذبته إليها.

ضغطت جبهتها إلى كتفه. شعر بأنفاسها تتقطع مرة واحدة، ثم استقامت. تردد سايرن قبل أن يضع كفه على ظهرها.

«تأخرت.»

«أعرف.»

ابتعدت ومسحت وجهها بكفها. نظرت إلى المقعد، ثم إلى النافذة، وأخيرًا قالت:

«قرهان في ساحة العربات.»

كان قرهان منحنيًا فوق لوح خشبي يستند إلى برميلين. ثبت رجل آخر طرف اللوح، بينما وضع هو عليه علامات بالفحم. رفع عينيه حين سكت الرجل المقابل له.

بقي الفحم بين أصابعه.

«أخلوا لنا المكان»، قال.

ابتعد الرجل، لكن قرهان لم يتحرك. نظر إلى سايرن من رأسه إلى حذائه الموحل، ثم وضع الفحم على اللوح.

«كان يمكن أن تكتب قبل ذلك.»

«لم يكن يمكن دائمًا.»

«ولم يكن يمكننا أن نتوقف حتى نعرف.»

أشار سايرن إلى العربات.

«أرى ذلك.»

اقترب قرهان. أمسك بذراعه فوق المرفق وضغط، ثم جذبه إلى عناق قصير آلم الضلع الذي لم يلتئم تمامًا. لم يتراجع سايرن.

عندما انفصلا، التقط قرهان الفحم من جديد، ثم تركه.

«سأحتاج إليك بعد أن تأكل.»

«في ماذا؟»

«لتخبر الرجال أنك عدت قبل أن تصلهم خمس روايات مختلفة.»

دخلوا على ميرافا بعد ذلك. استمع سايرن إلى أخبار المعابر التي استُعيدت، وإلى أسماء المواقع التي لم يصل إليها خبز منذ يومين. كانت قوات رهفان لا تتصرف كجيش واحد؛ وحدات رفضت أوامر إيردان، وأخرى شددت قبضتها على ما تحت يدها، وقادة ينتظرون ليروا لمن تكون الغلبة.

حين قالت ميرافا إن القيادة العسكرية تعود إليه، رأى سايرن قرهان يضم ورقة كانت أمامه ويضعها إلى جانبه.

أضافت، قبل أن يتكلم أحد:

«وتبقى المعابر والإمداد في يد قرهان. ما استعدناه لن نخسره لأننا غيرنا الأسماء فوق الأوامر.»

قال سايرن:

«أريد أن أرى خطوط التموين معه أولًا.»

رفع قرهان بصره عن الورقة المطوية، ثم بسطها من جديد.

وفي تلك الليلة، قبل أن ينام، كتب سايرن إلى سيراي أنه وصل. توقف عند آخر الجملة، ثم أضاف أن الرسالة وجدته عند أخته. طوى الورقة وسلمها إلى الرسول مع الاسم الذي طلبت أن يأتي الخبر إليه.

⁂

انتهى المسلك فوق الخليج إلى درج من ثلاث عتبات، ثم إلى عتبة رابعة لم يبق منها إلا نصفها.

لم يرها نائل في الظلام. وضع قدمه عليها، فانهار طرف التراب تحت حذائه واندفعت الحجارة الصغيرة إلى الأسفل. أمسك بجذر عند كتفه، وسمع نيرفا تهمس من أمامه:

«ابق مكانك.»

توقفوا حتى انتهى صوت الحصى. من أعلى المنحدر جاء سعال، ثم صرير قصير كاحتكاك خشب بحجر.

قال صوت امرأة:

«من معكم؟»

لم تظهر صاحبته. رأى نائل طرف عصا طويلة يقطع الشريط الباهت من السماء.

أجاب أوران:

«مصابون. نبحث عن موضع نبيت فيه.»

«ارجعوا من حيث جئتم.»

قالت إيسا:

«لو كان الرجوع أسهل لما صعدنا.»

تحرك الظل. نزلت المرأة عتبة واحدة نحوهم. كان في يدها قضيب حديدي قصير، لا العصا التي ظنها نائل. وخلفها ظهر رجل يحمل طرف محفة؛ الطرف الآخر مستقر فوق حجر، وعليه شخص مغطى حتى صدره.

قال الرجل:

«سدرا، لا نستطيع حمله من هنا وحدنا.»

التفتت إليه سريعًا، ثم أعادت نظرها إلى الغرباء.

«أخفضوا أيديكم عن أسلحتكم.»

كان نائل قد وضع يده على عصاه ليحفظ توازنه. أراها كفه الفارغة دون أن يفلت الجذر من الأخرى.

نزلت سدرا إليهم. كانت أصابعها مغبرة، وعلى كمها رقعة خيطت بخيط أفتح من القماش. نظرت إلى رفال وإلى حمالة إيسا، ثم توقفت عند سيف نيرفا.

«هل تستطيعين المشي؟»

«أستطيع.»

«إذن اصعدي بعدهم. لا أريد أن تسقطي فوق أحد.»

أشارت إلى نائل أن يترك الجذر. عندما فعل، أمسكت معصمه وساعدته على بلوغ العتبة الصحيحة.

في الأعلى انكشف سبب توقف المحفة. كان جزء من الممر قد انزلق، وبقيت بين طرفيه فجوة ضيقة لا تسمح بحمل الرجل أفقيًا. على الجانب الآخر امتدت حافة صخرية تتسع لقدم واحدة. حاول حامل المحفة أن يشرح، لكن سدرا أسندت القضيب إلى ركبتها وضربت الصخر ضربتين خفيفتين.

ثم وضعت أذنها قربه.

راقب نائل يدها وهي تنتقل من نتوء إلى آخر. توقفت عند موضع لا يختلف في عينيه عما حوله.

«خلف هذا فراغ»، قالت. «لكن الغطاء فوقه ضعيف.»

رفع نائل رأسه. في الحجر خط باهت، أو أثر خط، يمتد من موضع أصابعها إلى شق تحت العشب. أخرج العصا قليلًا من تحت الحزام.

قال أوران:

«ما الذي تراه؟»

«حافة قديمة. كانت أوسع.»

لمست سدرا الحجر مرة ثانية.

«إن حركت هذا الوجه كله، سقط ما فوقنا.»

جثا نائل إلى جانبها. وضع طرف العصا عند الخط، وانتظر حتى ميز امتداده تحت التراب. لم يحاول الوصول إلى الطرف الآخر؛ تبع فقط الجزء الذي أحس بثباته تحت قدمه.

«هنا؟»

نقلت أصابعها إلى الموضع الذي أشار إليه.

«أقل. إلى يمين يدك.»

سحب الخط مقدار شبر.

صدر صوت احتكاك مكتوم. تساقط تراب على شعره، وانكشف طرف حجر مسطح من جانب الممر. توقف فورًا. كانت ذراعه قد ثقلت، والهواء في صدره أقصر مما كان قبل لحظة.

أدخلت سدرا القضيب في الفتحة، واختبرت الحجر بوزنها.

«يكفي. لا تلمسه مرة أخرى.»

لم يصنع جسرًا. كشف موضعًا تقف عليه قدم حامل المحفة، فصار بإمكان الرجلين عبور الفجوة وهما يحافظان على استوائها. أخذ أوران الطرف الخلفي، ومر رائف وراءه ممسكًا بالحزام حتى لا تميل المحفة.

ظل نائل جاثيًا إلى أن عبر المصاب. ثم وجد سدرا تنظر إلى العصا.

«كيف عرفت أن هناك حافة؟»

«رأيت طريقها.»

«أنا سألتك كيف عرفت.»

نهض بصعوبة.

«لا أعرف كيف أشرحها أفضل من ذلك.»

لم تمدح ما فعله. انحنت إلى الحجر المكشوف، ولمسته للمرة الأخيرة قبل أن تضع قطعة من الصخر تحته.

«في المرة القادمة انتظر حتى أقول إن ما فوقك يحتمل.»

قادوهم إلى بناء منخفض كان يُستخدم لحفظ أدوات قطع الحجر. أُغلقت نافذته بقماش داكن، وفي الداخل نام ثلاثة أشخاص قرب الجدار. وضعت سدرا المصاب على فراش خالٍ، ثم أعطت نائل إناء ماء وقطعة قماش.

«أنت ومن معك تساعدون في هذا أولًا.»

أخذ الإناء.

لم يسأله أحد عن اسمه حتى انتهوا من غسل الدم اليابس عن ذراع الرجل.

في الصباح، وجدت سدرا رفال نائمًا وقد مد يديه خارج الغطاء، ونيرفا مستيقظة قرب الباب، وسيفها على ركبتيها. تفحصت السيف، ثم التفتت إلى أوران.

«سأوصلكم إلى من يقرر إن كنتم تستطيعون البقاء.»

قالت نيرفا:

«ومن يقرر؟»

«القائد.»

«اسمه؟»

نظرت سدرا إليها.

«ستسمعينه حين نصل.»

⁂

ساروا خلف سدرا معظم الصباح. تركوا المنحدر الساحلي إلى طريق بين مقالع مهجورة، واجتازوا نقطتي حراسة تحدثت عندهما إلى الرجال بأسمائهم. ظهرت العربات أولًا، ثم الدار الحجرية التي قالت إن الملكة تقيم فيها. وعلى الرابية المشرفة على مدخلها، رأى نائل سايرن.

عرف طريقة وقوفه قبل أن يعرف الوجه: اليد قريبة من حزام السيف، والكتف مائل قليلًا كأنه يصغي إلى شخص على جانبه حتى وهو وحده. ثم استدار الرجل، ووقع الضوء على فكه.

خرج الاسم من نائل قبل أن تمنعه المسافة:

«سارن؟»

رفع الرجل رأسه.

ابتعد جنديان عن طريقه وهو ينزل. نظر إلى نائل، ثم إلى أوران، واتسعت عيناه قليلًا.

«أنت.»

كاد نائل يسأله عن النزل وعن الأيام التي فصلت بينهما، لكن سايرن توقف. كان ينظر خلف كتفه.

التفت نائل.

خلعت نيرفا غطاءها.

تحرك الجندي الأقرب إليها قبل أن يأمره أحد. خرج نصف سيفه، وتقدم آخر من الجهة المقابلة. رفعت سدرا قضيبها لتمنعه من الاصطدام برفال، وصاح الرجل الذي جاء معها باسم القائد.

قال سايرن:

«ابقوا أماكنكم.»

لم يرفع صوته كثيرًا. توقف الجندي، لكن يده بقيت على السيف.

نظرت نيرفا إلى سايرن من رأسه إلى قدميه. لم تقل إنه حي. لم تقل شيئًا أصلًا. شدّت فكها، ثم أبعدت يدها عن مقبض سيفها وتركته ظاهرًا.

اقترب سايرن خطوة.

«جئتِ وحدك؟»

«كما ترى.»

«أرى من معك. أسأل عمّن وراءك.»

«لا جيش لي وراء الجبل.»

كانت الوجوه تتجمع حولهم. لمح نائل رجلًا يرفع كمًا فارغًا ليمر بين اثنين، وآخر يبصق على الأرض حين تعرف إلى نيرفا.

تقدم نصف خطوة حتى صار بجانبها.

«هربت من رجال إيردان. كنا معهم حين طاردوها.»

نظر إليه سايرن.

«سأسمع منك.»

ثم أعاد عينيه إلى نيرفا.

«وسأسمع منكِ. في الداخل.»

أشار إلى الجنديين أن يبتعدا عن الطريق، لا أن ينصرفا. سارت نيرفا بينهما دون أن تسمح لأحد أن يمسك ذراعها. عند باب الدار ناولت سيفها بنفسها إلى الحارس، وتابعت يده حتى وضعه على الطاولة بدل أن يلقيه مع الأسلحة الأخرى.

في الغرفة التي أدخلوهم إليها، رأى نائل خرائط مثقلة بأقداح وأحجار صغيرة. كان سايرن يراقبهم واحدًا واحدًا. توقف عند رفال، ثم عند ذراع إيسا.

«كم مضى على خروجكم من رهفان؟»

أجابه أوران، وبدأوا يسردون ما عرفوه. تكلمت نيرفا عن الحرس الذين تبدلت أوامرهم، وعن الأبواب التي أُغلقت في وجه رجال فاريك، وعن

المطاردة. حين وصلت إلى أخيها قصرت جملها. لم يسألها سايرن كيف مات، ولم تدفع هي الكلام إلى تلك اللحظة.

قالت:

«إيردان يرسل أوامره باسمه الآن. من يرفضها يُعد متمردًا.»

سأل سايرن عن وحدتين، فذكرت اسم قائد إحداهما وهزت رأسها عند الأخرى.

«الأولى لن تقبل بسهولة. الثانية كانت تنتظر عذرًا لتغيير ولائها.»

«هل تضمنين ذلك؟»

«أضمن ما عرفته قبل خروجي. ما فعله الرجال بعده يحتاج إلى من يتحقق.»

رأى نائل أصابع سايرن تستقر على حافة الطاولة. كان في كلام نيرفا ما يدفعه إلى سؤال آخر، لكنه التفت إليه بدلًا منها.

«قلت إن رجال إيردان طاردوكم جميعًا.»

أومأ نائل.

قال سايرن:

«كان نائبًا لي. إيردان آل فالدار.»

أحس نائل بأن الاسم فصل ما قبله عما بعده. نظر إلى أوران، فوجد الرجل قد رفع بصره إليه.

قال نائل:

«فالدار؟»

«تعرفه؟»

لم يجب فورًا. تذكر كلام أوران عن الخريطة التي اؤتمن عليها رجال، وعن المملكة التي وُعدوا بها ولم تقم، وعن منصب انتهوا إليه داخل قاسران.

«أعرف اسم أسرته.»

شرح ما يلزم. لم يعد إلى الليلة كلها، ولا إلى وجوه الحكام الذين عرف أسماءهم حديثًا. ذكر الأمانة التي خانها آل فالدار، والوعد الذي أغراهم، وما بقي لهم بعد الانكسار.

استمع سايرن دون أن يقاطعه. وحين انتهى، سأل أوران:

«أنت أخبرته؟»

«نعم.»

تأمله سايرن لحظة.

«ومن أين عرفت ما جرى يومها؟»

جمع أوران طرف ردائه عن حافة المقعد، ولم يجب. رفع نائل عينيه إليه، فرأى نيرفا تنقل نظرها بين الرجلين.

انتظر سايرن قليلًا، ثم سأل:

«وهل يعرف إيردان هذا؟»

قال أوران:

«لا أعرف مقدار ما وصل إليه.»

خفض سايرن نظره إلى الخريطة.

«طعَنني وترك رجالي في الطريق. هذا ما أعرفه أنا.»

سكت لحظة، ثم أضاف:

«وفي قاسران تاريخ آخر لهذه الأسرة. تمرد قادتها، وعاقب أبي أبرياء معهم. ما فعله إيردان لا يمحو ذلك، وما وقع لهم لا يبرر ما فعله.»

نظر نائل إلى أثر الجرح عند فكه، ثم إلى يده التي لم تفارق الطاولة. كان قد ظن، حين سمع الاسم، أن الأمر صار أوضح كله. الآن عرف فقط أن الخيانتين تحملان اسمًا واحدًا، وأن بينهما أناسًا لا يعرف قصصهم.

أرسل سايرن في طلب من يفحص المصابين، وأمر الحارسين بمرافقة نيرفا حتى يحين دخولهم على الملكة. خرجت متكئة على حافة الطاولة في خطوتها

الأولى، ثم استقامت. نهض رفال ورائف وإيسا خلفها، ورافقتهم سدرا إلى الباب.

تأخر نائل، وأشار إلى أوران أن ينتظر.

قال لسايرن، بعدما خلا لهم المكان:

«هناك شيء يجب أن تعرفه قبل أن تسمع منا الملكة ما نطلبه. أنا وريث أثيرا. الأمير الذي نجا منها أبي.»

نظر سايرن إلى أوران. هذه المرة أجابه الرجل:

«هو ابنه.»

سأل سايرن نائل عمّا يثبت قوله، فأراه غلاف الختم دون أن يفتحه.

«أُظهره أمام الملكة.»

طرق رسول الباب. استمع إليه سايرن، ثم أرسل نائل وأوران إلى رفاقهما ودخل على ميرافا وحده. وعندما عاد، قال:

«ستسمعكم الملكة.»

⁂

لم تأذن ميرافا لنيرفا بالجلوس فور دخولها.

وقفت الفارسة عند طرف الطاولة، وساقها المصابة تحمل أقل من نصف وزنها. كان سيفها ما يزال في الخارج. على الجانب الآخر وقفت امرأة تحمل أوراقًا، وعند الباب حارسان لم ينظرا إلى أحد سواها.

قالت ميرافا:

«خرجتِ من بلادك، فجئتِ إلى الذين دخلتِ بلادهم بجيشك.»

«لم أختر الساحل وحدي.»

«لكن اخترتِ دخول هذه الغرفة.»

رفعت نيرفا رأسها.

«لأن لديّ ما قد يقلل عدد الرجال الذين سيموتون لاستعادة أرضك.»

تحرك فك ميرافا قليلًا.

«ستضعين ما تعرفينه على الخريطة. نتحقق منه قبل أن نرسل أحدًا. لا أوامر لك على جنودي، ولا اتصال بوحدة من رهفان إلا بعلم سايرن.»

«وإن كانت هناك وحدة تريد الانسحاب؟»

«نعرف أين تذهب، وبأي سلاح، ومن يرافقها إلى خارج مواقعنا.»

نظرت نيرفا إلى سايرن. لم يعترض.

قالت:

«أحتاج إلى معرفة من بقي من قادتها قبل أن أعدك بشيء.»

سحبت ميرافا مقعدًا بطرف يدها وأشارت إليه. جلست نيرفا ببطء. لم يرفع الحارسان أعينهما عنها.

حين انتهت سدرا من وصف ما وقع عند الممر، طلبت ميرافا منها أن تدل رفاق نائل على موضع راحتهم، وأمرت الحارسين بمرافقة نيرفا. خرجت المرأة التي تحمل الأوراق معهما. انتظرت الملكة حتى أغلق سايرن الباب، ثم التفتت إلى نائل. لم يبق في الغرفة سوى الأربعة.

«أخبرني سايرن قبل دخولكم أنك تقول إنك وريث أثيرا.»

قال نائل:

«أنا ابن أميرها الذي نجا.»

«الختم معك؟»

أخرجه من غلافه. دفئ في كفه، ثم ظهرت العلامة مع استجابته. اقتربت ميرافا، وانحنت لترى موضعها. أشار سايرن إلى الغلاف الذي رآه قبل قليل، ثم نظر إلى العلامة التي انكشفت الآن.

قالت ميرافا:

«هذا هو الوصف الذي حفظته سجلاتنا. لم يقل سايرن إنك أظهرت له العلامة.»

«لم يطلب ذلك.»

عادت ميرافا تنظر إلى وجهه.

«في سجلات التاج المحفوظة خبر محو أثيرا ووصف هذه العلامة. اطّلعت عليه حين أُعدِدت للحكم. لم يذكر السجل وريثًا نجا.»

قال نائل:

«وهل عرف الناس؟»

«لم تكن تلك السجلات لهم.»

نظر إليها، منتظرًا أن تزيد. أعادت طرف الرسم القريب منها إلى وسط الطاولة ووضعت إصبعها خلف مواقع الاحتلال.

«إذا استطعت فتح طريق خلف مواقعهم، أضع معك رجالًا يعرفون أين يقودونك.»

أعاد الختم إلى غلافه.

«أستطيع النظر في طريق. لا أستطيع أن أعدك بفتحه قبل أن أراه.»

«ستذهب حيث يحدد القائد.»

«أذهب معه. لكن إذا كان الفتح سيُسقط الجبل على من فيه، أتوقف.»

ساد صمت قصير. خشي نائل أن يكون صوته قد خرج أعلى مما أراد، لكنه لم يجد عبارة أخرى أدق.

قالت ميرافا:

«كل أمر هنا يحمل خطرًا.»

أجاب أوران:

«ولهذا يجب أن يستطيع من يلمس الطريق أن يوقف العمل. قائدك يقرر ما يحتاجه الجيش، ونائل يجيب عمّا يقدر عليه.»

نظرت إليه طويلًا، ثم إلى سايرن.

قال القائد:

«أحتاج إلى طريق يبقى مفتوحًا حتى يعبر آخر رجل. إن قال إنه لا يحتمل، أريد أن أعرف قبل أن أدخلهم.»

جمعت ميرافا الأوراق القريبة منها.

«إذن تنظرون أولًا. وتعودون بخطة يمكن تنفيذها.»

لم تكن موافقة على الرحلة التي أرادها نائل، ولا على أخذ شيء من المملكة. لكنها تركت له حق القول إن عليه التوقف. عندما خرج، أدرك أنه كان يقبض على غلاف الختم طوال الحديث.

⁂

في المساء بسط سايرن خريطة أخرى، أصغر وأشد اتساخًا من خريطة الملكة. جاء قرهان بسجل ملفوف بخيط، ووضعه إلى جانبها. وقفت سدرا قرب النافذة، تنتظر أن يفرغ الرجلان من الكلام.

شرح سايرن كيف يمكن استغلال اضطراب وحدات رهفان لقطع الطريق عن موقعين متقدمين. وضع حجرين فوق الخريطة، ثم مرر إصبعه بينهما.

«ندفعهم إلى هنا، وننقل الرجال عبر المعبر قبل أن تصلهم نجدة.»

قال قرهان:

«وبأي عربات؟»

رفع سايرن عينيه.

فتح قرهان السجل، وأدار صفحة كتب على هامشها أرقامًا متقاربة.

«هذا المعبر يحمل خبز المواقع الثلاثة. إذا نقلت عليه القوة ليلًا، توقفت العربات حتى الظهر. وإذا انسحبوا كما تريد، سيكفيهم أن يحرقوا الجسر الصغير هنا.»

وضع ظفره على نقطة لم يضع سايرن فوقها حجرًا.

«عندها تصل إلى خلفهم، وتبقى أنت ورجالك بلا طريق يحمل الجرحى أو الطعام.»

قال أحد الضباط:

«يمكن أن نحمل مؤن يومين.»

«والرجال هنا؟» سأل قرهان. «من يحمل إليهم يومهم الأول؟»

لم يجب الضابط.

نظر سايرن إلى السجل، ثم طلب مقدار ما تعبره العربات في كل دفعة. أجابه قرهان دون أن يقلب الصفحة. سأله عن الطريق البديل، فهز رأسه.

«يصلح للركاب. محور العربة لا يحتمل انحداره.»

بقي سايرن صامتًا حتى بدأ نائل يسمع حفيف النار في الموقد الصغير. ثم رفع الحجر الذي وضعه عند المعبر.

«يبقى هذا مفتوحًا للإمداد.»

نظر إلى الضابط.

«لا يُنقل رجل من حراسته دون علم قرهان.»

أغلق قرهان السجل نصف إغلاق، لكنه أبقى إصبعه بين صفحاته.

قال سايرن:

«نحتاج إلى دخول لا يمر منه.»

تحركت سدرا عند النافذة.

«هناك وجه صخري خلف التحصين الغربي.»

أشار إليها أن تقترب.

وضعت إصبعين على جانب الخريطة، ثم أبعدتهما حين رأت أن موضع الارتفاع رُسم أبعد مما ينبغي.

«هذه الحافة لا تزال قائمة، لكن الطريق تحتها انغلق. كنا ننقل الحجر منه قبل الحرب. توجد تجاويف وراءه؛ أسمعها حين أضرب الموضع الصحيح.»

سأل قرهان:

«ممر عربات؟»

«لا أعدك حتى بممر رجل قبل أن أراه من الداخل.»

رفعت عينها إلى نائل.

«لكنه رأى عند الخليج ما لم أستطع بلوغه.»

اقترب نائل من الخريطة. لم يشعر بشيء في خطوط الحبر. كانت ورقة تصف الجبل، والجبل بعيد.

«أحتاج إلى الذهاب معك.»

قال سايرن:

«تذهبان للاستطلاع، ومعكما من يحرس الطريق. لا فتح، ولا دخول، قبل أن تعودا بما وجدتما.»

«نعود بما نجده»، قال نائل. هذه المرة لم يحتج إلى أن يصحح الأمر؛ كان يريد أن يعرف ما وراء الصخر قبل أن يضع يده عليه.

سألت إيسا، من المقعد القريب من الباب:

«والخليج؟ تركنا فيه السفينة.»

التفتت سدرا إليها.

«وصفتِ لي الصخرة المشقوقة. أعرف من يمر هناك. نرسل رجلين يتأكدان من الحبال، ولا يقتربان منها نهارًا إن كان أحد في البحر.»

«أذهب لأريهما الموضع.»

نظر أوران إلى حمالتها، فقالت قبل أن يتكلم:

«أريهما من أعلى المسلك. لن أحرك الشراع.»

وافق سايرن، ثم انتظر حتى انتهى قرهان من كتابة ما تقرر. حين هم الرجال بالخروج، طلب من نائل وأوران وسدرا أن يبقوا، وأشار إلى رائف أن يغلق الباب.

أزاح الخريطة العسكرية عن وسط الطاولة. تحتها ظهر رسم أقدم، انثنت أطرافه من كثرة الطي. ثبت سايرن إحدى زواياه بقبضة يده.

«وافقتَ على استطلاع الطريق»، قال لنائل. «لكن أوران لم يأت بك إلى هنا من أجل الحرب وحدها.»

نظر نائل إلى معلمه، ثم عاد إليه.

«نحتاج إلى قوة الأرض.»

لم يتحرك وجه سايرن. أشار إلى موضع داخل حدود المنطقة المحتلة.

«الأثر هنا.»

اقتربت سدرا حتى لامس ظلها الورقة.

قال سايرن:

«لم يُنقل حين انسحب رجالنا. الطريق الذي يصل إليه صار خلف مواقعهم.»

سأل رائف:

«هل يعرفون ما يحرسونه؟»

«لا أعرف من بينهم يعرف. لكن الوصول إليه من الطريق الظاهر يتطلب المرور بتحصينين.»

تتبعت سدرا بإصبعها امتداد الجبل، وتوقفت قرب العلامة التي وضعها سايرن.

«إن كان التجويف الذي أعرفه يمتد إلى هنا، فسيمر تحت جانبهم الغربي.»

قال نائل:

«يمكن أن يصل بنا إلى الأثر؟»

«يمكن أن يقودنا إلى جدار آخر. نذهب أولًا.»

مال سايرن فوق الرسم.

«إن وجدنا مدخلًا، ندخل منه رجالًا يفتحون الطريق لبقية القوة. أنتم لا تحملون معركة وحدكم. نستعيد الموقع، ونصل إلى الأثر قبل أن يخرجوه أو يتلفوه.»

سأل نائل:

«ثم تسمح الملكة لنا بأخذه؟»

قال سايرن:

«لم تعطِ الملكة هذا الوعد، ولا أعطيه باسمها. أستطيع أن أوصلك إلى موضعه، وأن أقول أمامها ما فعلتم حين ينتهي الأمر.»

«هذا يكفينا الآن»، قال نائل.

على الورقة كان الموضع قريبًا من خط الجبل، لا يفصله عنه إلا عرض إصبع. مد سايرن إليه الحجر الذي رفعه قبل قليل عن معبر الإمداد، لكن سدرا أخذته ووضعته بعيدًا عن العلامة.

«اتركوا الطريق ظاهرًا حتى نعرف أين ينتهي.»

تراجع نائل عن الطاولة ليفسح لها المجال. بدأت تسأل سايرن عن ارتفاع الأرض وراء التحصين، وعن موضع خروج الماء بعد المطر، وعن آخر مرة عبر فيها أحد ذلك الجانب. أجاب عمّا يعرفه، وترك ما لا يعرفه فارغًا.

وفي الخارج استمرت العربات تتحرك نحو المعبر الذي بقي مفتوحًا.

⁂

لم يأخذ نائل الرسم الكبير حين خرجوا. نسخ رائف منه حدود الحافة وموضع التحصين على ورقة أصغر، وترك ما بينهما خاليًا. طواها مرتين وأدخلها في جراب يحميها من البلل، ثم لحق بسدرا عند آخر العربات.

كانت تنتظر رجلين اختارهما سايرن لحراسة الطريق. حمل أحدهما قوسًا ملفوفة بقماش، فيما ثبت الآخر حبلًا إلى جانب حقيبته. تفحصت سدرا نعليهما، ثم قالت للأول:

«إذا سمعت حجرًا يسقط، لا تتقدم لتعرف من أسقطه.»

رفع الرجل رأسه إليها.

«أعرف الجبل.»

«إذن تعرف أن الصوت يصل من غير موضعه.»

لم تجادل أكثر. أخذت من عربة قريبة كيسًا صغيرًا، وناولت أوران قربة ماء كانت موضوعة فوقه. رفعها إلى كتفه، ثم نظر إلى نائل.

«معك ما تحتاجه؟»

تحسس نائل غلاف الختم تحت ثوبه، وشد الحزام الذي يثبت العصا إلى جانبه.

«معي.»

تحركوا بمحاذاة العربات قبل أن يسلكوا طريقًا يصعد بين جدارين منخفضين من الحجر الجاف. التفت نائل مرة واحدة فرأى إيسا عند طرف الساحة تشرح لرجلين هيئة الصخرة المشقوقة. كانت تشير بيدها السليمة، ويعيد أحدهما رسم الإشارة في الهواء. وراءها جلس رفال قرب الباب، يحاول شد رباط حذائه دون أن يستعين بأسنانه.

أما نيرفا فكانت على الجانب الآخر من الساحة، إلى جوار سايرن وحارس يحمل لفافة. لم ترهم وهم يصعدون. كان القائد يتحدث، وهي تصغي وعيناها على الشيء الذي فتحه الحارس بين يديه.

حين تجاوزوا أول منعطف، اختفت الساحة كلها.

سارت سدرا أمامهم بخطوات قصيرة لا تتغير مع شدة الصعود. لم تتبع منتصف الطريق؛ تنتقل من حافته إلى رقعة صخر، ثم تعود إليه بعد موضع يبدو لنائل مماثلًا لما قبله. حاول أن يقلد مواضع قدميها. عند المرة الثالثة التفتت وقالت:

«الطين هنا يغطي ألواحًا مائلة. إن وطئت وسط اللوح تحرك بك.»

نظر إلى الأثر الذي تركه حذاؤه خلفها. كان الماء قد ظهر في أسفله.

بعد مسافة، انفرج الجداران وظهر وجه الجبل. قطعت الشمس حافته العليا، فيما امتد الظل إلى أسفل المنحدر. كانت الحجارة في بعض المواضع مصطفة على نحو منتظم، ثم تنقطع فجأة عند كتلة خام لم تمسها الأدوات.

أخرج رائف الورقة وقارنها بالمكان.

«في الرسم انحناء آخر قبل الحافة.»

قالت سدرا:

«كان الطريق يدور حول موضع قطع قديم. ردموه، ثم صار الناس يعبرون فوقه.»

مررت قدمها على التراب، فانكشفت زاوية حجر مربع.

«الرسم أقدم من الطريق الذي جئنا منه.»

وضع رائف علامة صغيرة قرب الخط، ثم رفع بصره إلى الجبل مرة أخرى. أشار إلى حارس القوس أن ينتظر عند المنعطف. صعد الرجل إلى موضع يستتر فيه جسده خلف صخرة ويرى منه الطريق السفلي.

تقدم الحارس الثاني معهم حتى بلغوا منخفضًا ضيقًا. هناك توقفت سدرا.

«من هنا لا نرفع أصواتنا.»

لم ير نائل شيئًا فوق الحافة، لكنه سمع خبطة بعيدة تلتها أخرى. لعلها مطرقة، أو باب يُغلق. أصغى حتى تكررت، ثم نظر إلى سدرا.

رفعت كفها، وأشارت إلى أن الصوت يأتي من الجهة الأخرى.

خفضوا رؤوسهم ومضوا بمحاذاة الصخر. عند شجرة قصيرة جذعها ملتوٍ، أنزل أوران القربة عن كتفه وأخرج البوصلة.

فتح غطاءها بظفره، ثم مدها إلى نائل.

«خذها.»

تلقاها بيديه. كان المعدن أبرد مما توقع، والحافة التي اعتاد أن يراها بين أصابع أوران ملساء من كثرة الاستعمال. قرّبها من صدره ليتبين الإبرة في الظل.

«دعها تستقر.»

خفضها نائل إلى مستوى خصره. تحركت الإبرة قليلًا، ثم اتجهت إلى وجه الصخر أمامهم.

مد أوران إصبعه حتى كاد يمس الغطاء.

«لا تمِلها لتقرب العلامة من الضوء.»

سوّاها نائل على راحته. عاد طرف الإبرة إلى الجهة نفسها.

رسمت أمامه طريقًا قصيرًا لا يزيد على بضع خطوات: تراب، ثم حجر مسطح، ثم شق رأسي في الجبل. تقدم نحوه.

ركعت سدرا عند الشق، وأدخلت فيه أطراف أصابعها. مسحت التراب عن جانبه، ثم سحبت يدها.

«هذا وجه منفصل عن الكتلة. إن ضغطنا عليه انخلع.»

«وخلفه؟» سأل نائل.

وضعت كفها على موضع أخفض، وأصغت لحظة.

«لا أجد مدخلًا هنا.»

نظر إلى البوصلة. لم تتحرك.

«لكنها تشير إليه.»

قال أوران:

«إلى ما يتصل بالطريق في تلك الجهة.»

«أليس هذا موضعه؟»

لم يجبه مباشرة. أخذ حجرًا صغيرًا ووضعه قرب حذاء نائل، ثم تراجع بمحاذاة الجبل مسافة خطوات.

«تعال إلى هنا، واترك الحجر مكانك.»

تحرك نائل والبوصلة مبسوطة على كفه. لم يستطع منعها من الاهتزاز مع مشيته، فتوقف حتى هدأت. تغير اتجاه الإبرة مقدارًا يسيرًا، وأشارت إلى موضع على يمين الشق.

«ما الذي تغير؟»

«موضعي.»

«وما الذي لم نعرفه بعد؟»

رفع نائل عينيه إلى الجبل. حاول أن يجد فتحة في الموضع الجديد؛ لم ير إلا سطحًا غطاه حزاز شاحب.

«من أين ندخل.»

تركه أوران ينظر. لم يستعد البوصلة، ولم يشر إلى مكان آخر.

جاء رائف بالورقة، ووضعها فوق حجر بينهما. طلب من نائل أن يريه الموضعين، ثم رسم خطين قصيرين بالقلم. لم يمدهما إلى أن يلتقيا؛ ترك الطرفين مفتوحين.

قال:

«نعرف جهة ما تتبعه. لا نعرف ما يعترضنا قبل أن نبلغه.»

نقل نائل بصره من الورقة إلى الشق الأول. لو كان وحده لوضع العصا هناك، كما فعل عند الخليج. تذكر الحجر الذي تحرك تحت أصابع سدرا، ولمس طرف العصا من فوق الحزام دون أن يخرجه.

سأل أوران:

«إذن كيف نبحث عن المدخل؟»

«تخبرنا هي إلى أين ننظر. ثم نرى ما تقوله الأرض.»

أشار إلى سدرا، التي كانت قد تجاوزتهم إلى رقعة عند أسفل الجبل.

«ولا تطلب من الإبرة جوابًا لا تعطيه.»

لحق بها نائل. في الموضع الأول كان نظره يسبق قدميه إلى النقطة التي يشير إليها المعدن. هذه المرة راقب ما بينهما: انحدار الأرض، والحجارة المتراكمة عند قاعدتها، والمواضع التي نبت فيها العشب على صف واحد.

مضوا قليلًا. كلما طلب رائف توقفًا سوّى نائل البوصلة على كفه، ثم انتظر حتى يرسم الرجل علامته. كان أوران خلفهما، يحمل القربة ويترك لهما اختيار مواضع الوقوف. عندما تردد نائل عند نتوء، أشار إليه أن يجرب الجانب الآخر بنفسه.



في الأسفل ظهر فراغ بين شجرتين، يقطعه أثر ماء يابس. اقتربت سدرا منه، لكنها لم تنزل.

«كان الماء يخرج من هنا.»

انحنى نائل. رأى حجارة صغيرة متشابهة الحجم، مستديرة من جانب ومكسورة من الجانب الآخر، كأنها جُمعت من موضعين مختلفين.

قال رائف:

«مجرى؟»

«ربما. أو مخرج يمر فيه الماء حين تمتلئ التجاويف.»

تحرك نائل إلى يسارها. مالت الإبرة ناحية الجبل، وراء كتفه تقريبًا. عاد خطوة ثم أخرى، فعادت تتقدم أمامه.

رفع رأسه إلى أوران.

«تجاوزنا ما تشير إليه.»

«من جهة واحدة.»

تطلع نائل إلى المنخفض. كان أوطأ من الموضع الذي وقفوا عنده أولًا، وأبعد عنه على امتداد الحافة. لم يكن في الخط المستقيم الذي تخيله حين تلقى البوصلة.

جثت سدرا وأزاحت غصنًا يابسًا. تحت الغصن ظهر حجر طويل موضوع بعرض أثر الماء. نقرت عليه بمفصل إصبعها، ثم وضعت راحة يدها على الصخر المجاور.

لم تضرب بقضيبها.

«هنا اختلاف.»

اقترب رائف من كتفها ليرى. تحرك الحارس خلفهم، فرفعت سدرا يدها ومنعته من النزول إلى المنخفض.

«انتظر فوق. لا نجتمع بوزننا كله.»

تراجع الرجل. ناول نائل البوصلة إلى أوران كي يتفرغ للنزول، لكن أوران دفع يده برفق نحو صدره.

«أغلقها أولًا. وأنت الذي يحملها حتى نرجع.»

أطبق الغطاء وأدخلها في جيب داخلي. تحسس موضعها حتى استقرت بعيدًا عن غلاف الختم، ثم نزل على ركبتيه إلى جانب سدرا.

طلبت منه أن يمسك الغصن إلى الخلف. كشطت بطرف صغير من قضيبها التراب المتجمع عند الحجر الطويل، فانكشف خط مستقيم يمتد تحت جذر رفيع.

مرر نائل أصبعه فوقه. عند الطرف الأبعد أحس بتلك الرعشة الخفيفة التي عرفها في مواضع أخرى؛ امتداد يضيع حين يحاول تتبعه بعينيه، ويعود حين يثبت يده ويصغي إلى جسده.

قال:

«كان شيء يلتقي هنا.»

رفعت سدرا نظرها إليه.

«شيء أم طريق؟»

«لا أعرف بعد.»

لم تبدُ منزعجة من الجواب. أزاحت مزيدًا من التراب، حتى ظهرت حافة ثانية تحت الأولى، وبينهما فجوة لم تتسع إلا لظفر.

اقترب أوران، لكنه توقف عند الموضع الذي منعت الحارس من تجاوزه.

سأل نائل:

«أستطيع أن أنظر بالختم؟»

«ما الذي تريد أن تعرفه؟»

نظر إلى الفجوة. كان يستطيع أن يحاول توسيعها؛ فكرة يسيرة في رأسه، وحركة قد لا يعرف أين ينتهي أثرها تحت أقدامهم.

«إن كان هذا اتصالًا بالطريق نفسه.»

قالت سدرا:

«ومن دون أن تحركه.»

أخرج الختم من غلافه وأمسكه قريبًا من الحجر. أحس بدفء بطيء تحت أصابعه. لم تظهر فتحة، ولم يتغير موضع الحافة. لكنه استطاع أن يتتبع امتدادًا قصيرًا تحت الجذر، ينحني إلى الداخل بدل أن يصعد مع الشق الذي رأوه أولًا.

سحب يده وأعاد الغلاف.

«ينعطف تحتنا.»

مد رائف الورقة على سطح جاف. طلب منه أن يريه الانعطاف، ثم صحح الخط الذي رسمه عند آخر وقفة. أضافت سدرا موضع الجذر والحجر الطويل، وحددت أين لا يجوز أن يقف الرجال.

عندما انتهوا، رفع نائل البوصلة مرة أخرى. وجهها إلى موضع الوقفة الأولى، فاعترضه أوران بإشارة صغيرة.

تذكر، وسوّاها على كفه بدل أن يديرها حيث يريد.

استقرت الإبرة. كان الاتجاه واضحًا، لكن المدخل الذي يبحثون عنه صار أخفض من أقدامهم، وراء حجر لم يكن قد نظر إليه عند وصولهم.

أغلق الغطاء.

قال أوران:

«ماذا سنقول لسايرن؟»

«وجدنا موضعًا نفحصه. لم نجد ممرًا نعبره بعد.»

ناول رائف الورقة إلى سدرا لتراجعها. نظرت إلى خطوطها، ثم إلى الحجر الذي كشفوا طرفه.

«نحتاج إلى معرفة ما يحمل هذا الوجه من الداخل. بعدها أقول لكم أين يمكن وضع اليد.»

لم يُخرج نائل العصا. أعاد الغصن فوق الموضع كما كان، وساعدها في رد التراب الذي أزاحته عند الحافة الخارجية. أما علامة العودة فكانت في رسم رائف: شجرتان، ومخرج ماء قديم، وحجر طويل يعترضه.

حين صعد من المنخفض، اصطدمت البوصلة بخفة إلى أضلاعه. وضع كفه فوق جيبه، وتابع سدرا نحو الطريق.

⁂

وضعت أزال الورقة على الأرض، وثبتت طرفها بحجر. لم تكن خريطة حرب؛ خطان يمثلان الطريق، وثلاث دوائر حول مواضع يصلح فيها تبديل الخيل. جلس الرسول على كعبيه أمامها، وقد ابتلت إحدى ساقي سرواله حتى الركبة.

«من رأى السفينة؟»

«راعي غنم فوق الخليج. رآها تدخل ولم يرها تخرج.»

«ورأى من نزل منها؟»

تردد الرجل.

أعادت إليه الورقة.

«إذن اكتب سفينة. لا تكتب الرجال الذين تريد أن تجدهم فيها.»

كان تحت الشجرة حصانان، وثالث مربوط إلى وتد أبعد منهما. رفعت أزال رأسها حين تحرك الثالث. خرج من بين جذوع الشجر فارس يقود دابته من اللجام، وعلى كمّه غبار الطريق الأبيض.

انتظر حتى انصرف الرسول، ثم ناولها لفافة صغيرة. قرأتها واقفة. الخبر هذه المرة من رجل رأى الغرباء يدخلون دار ميرافا، ووصف الشاب الذي يحمل العصا، والعجوز، والفارسة المصابة في ساقها. وفي أسفل اللفافة سطر عن امرأة من أهل المحاجر رافقتهم إلى الحافة الغربية.

سأل الفارس:

«نقطع عليهم طريق العودة؟»

لفت الورقة من جديد.

«لم يصلنا أمر بأسر أحد.»

«قد يدخلون التحصين مع رجال سايرن.»

«لهذا ستعرف أين يخرجون منه.»

فتحت جراب سرجها وأخرجت أمر جروان. مر إصبعها على الموضع الذي ينتهي عنده التكليف، ثم أعادته دون أن تدعه يقرأه. كانت الحراسة على الطريق الشرقي كثيفة بما يكفي لمنع جماعة صغيرة من المرور، لكن إرسال رجالها إليه الآن سيجعل وجودهم خبرًا يصل إلى الملكة قبل المساء.

اختارت رجلين من المنتظرين عند الخيل. أرسلت الأول إلى الطريق الذي يصل قاسران بإيفارا، والثاني إلى مرتفع يكشف مخارج المنطقة المحتلة. أمرتهما أن يسألا عن العابرين، وأن يشتريا علفهما من موضعين مختلفين.

«وإذا سقط التحصين؟» سأل الثاني.

«عدّوا من يغادر بعد سقوطه. المنتصرون أيضًا يسلكون الطرق.»

رفعت الحجر عن الورقة. وضعت عند ملتقى الخطين علامة صغيرة، ثم طوتها وأدخلتها في الجراب.

⁂

في صباح اليوم التالي، عاد نائل إلى الشجرتين ومعه رجال يحملون خشبًا قصيرًا، وأوتادًا، وحبالًا. سبقهم سايرن إلى الموضع، وأرسل حارسيه ليراقبا الحافة. وضع رائف رسمه فوق صخرة، وراح يطابقه على ما يراه. لم تكتف سدرا بما أحضر الرجال؛ فتحت حزمة الدعامات بنفسها، واستبعدت قطعتين تشققت نهايتاهما.

كان نائل قد أعاد البوصلة إلى أوران في الليلة الماضية. الآن رآه يخرجها، فتقدم من غير أن ينتظر. وضعها العجوز في كفه، واشتغل بسدادة القربة.

تأكد من العلامتين اللتين رسمهما رائف، ثم أغلقها. لم يرجع إلى الشق المرتفع. نزل مباشرة إلى الحجر الطويل، وانتظر حتى وضعت سدرا أول وتد تحت حافته.

«أمسك هنا.»

مد يده، فأبعدتها قليلًا عن موضع قد يطبق على أصابعه. رفعا معًا قدرًا يكفي لدفع الوتد الثاني. ظهر فراغ أسود ينفذ منه هواء بارد تفوح فيه رائحة تراب رطب.

أدخلت سدرا قضيبها، وضغطت به إلى الأسفل. سقط شيء صغير في العمق. عدّ نائل في نفسه الوقت بين السقوط وارتداد الصوت، لكن القضيب ارتعش فجأة في يدها قبل أن يسمع شيئًا.

أخرجته فورًا.

«ابتعدوا عن الحافة.»

رجع الرجال إلى الوراء. أحس نائل بالرعشة نفسها تحت ركبته الأخرى؛ مضت في الصخر نحوه، ثم جاوزته. فوقهم طنّ الحديد في حلقة علقت بأحد الأوتاد. انقطع الصوت، وعاد ضعيفًا من جهة الجبل.

انحنى سايرن إلى الحلقة وأمسكها حتى سكنت.

«سمعت مثله قبل أن يتحرك الحديد في موضع آخر. أبعدوا الأدوات عن بعضها؛ نحتاج أن نعرف ما يأتي من الداخل.»

نقل أحد الرجال حزمة المسامير إلى التراب. وضعت سدرا كفها على الحجر الطويل، ولم تحاول إدخال القضيب مرة ثانية.

قال نائل:

«لم أحرك شيئًا.»

«أعرف. هناك حمل انتقل حين رفعتُ الحافة.»

ظهر الحارس عند الشجرة العليا. لم يصح، لكنه وضع يده على سيفه.

«رجل قادم من الممر الخلفي. يقول إنه حافظ قوة قاسران.»

خرج الرجل من وراء الجذع. قالت سدرا بصوت منخفض: «إيلدار». نظر إليها نائل، ثم عاد إلى الرجل. كان معطفه محمولًا على كتف واحدة، وفي

أسفل ثوبه طين جاف. لم ينظر إلى سايرن ولا إلى الرجال. نظر إلى يد نائل، ثم إلى الحجر المسنود بالوتدين.

«أغلِقوه.»

تحرك أوران إلى جانب المنخفض.

قال سايرن:

«نحن نفحص موضع عبور.»

«أعرف ما تفعلون.»

توقف إيلدار فوق نائل مباشرة. رأى الشاب أصابعه تنقبض على قبضة السكين عند خصره، فعاد خطوة. كانت سدرا بينه وبين الصخر، وليس خلفه موضع يتسع لتراجع آخر.

التفت سايرن إلى الرجال.

«إلى المنعطف. لا تدعوا أحدًا ينزل.»

تباعدت الخطوات. سأل سايرن حارسه الأخير عن نيرفا قبل أن يصرفه، فأجابه أنها خرجت منذ الفجر إلى مواقع وحدات رهفان. انتظر حتى ابتعد الرجل، ثم واجه إيلدار.

«قل ما جئت من أجله.»

أخرج إيلدار السكين. كانت قصيرة، لكنها لم تكن أداة لرفع الحجارة. تقدم أوران، فعرض إيلدار حدها نحوه، وأبقى عينيه على نائل.

«ما كان ينبغي أن تأتي إلى هنا.»

أحس نائل بغلاف الختم ملاصقًا لضلعه. لو مد يده إليه الآن لرآها الرجل حركة أخرى.

«لم أفتح الطريق.»

«حامل الخريطة لا يحتاج إلى جيش حتى يبدأ ما لا يستطيع جيش أن يوقفه.»

قال أوران:

«وضع السكين بينكما لن يصلح ما تخافه.»

«موته يمنعه.»

لم يعلُ صوت إيلدار. نطق الجملة وهو يزن المسافة إلى المنخفض، فعرف نائل أن الأمر يتجاوز محاولة إخافته. وضع أوران قدمه على حافة الحجر، وحجب عنه نصف جسد الشاب.

تحرك سايرن إلى الجانب الآخر. لم يسل سيفه بعد.

«إن كنت ترى خللًا في هذا الموضع فأرِنا إياه. أما أن تقتله بين رجالي فلن يحدث.»

تحت كف سدرا صدر صوت دقيق، أشبه بكسر عود يابس. التفتت إلى الوتد الثاني. كان رأسه ينخفض ببطء في التراب.

«توقفوا عن الحركة.»

جمّد نائل قدمه. تناثر غبار من الفجوة التي فتحوها.

قال إيلدار:

«هذا أوله.»

«هذا وتد يغوص»، ردت سدرا. «وإن وقفتم تتجادلون صار ما تقول.»

طلبت من أوران قطعة الخشب العريضة. انحنى ليأخذها من الحزمة، فأصبح نائل مكشوفًا لحظة. لم يقترب إيلدار. كان ينظر إلى حافة الفتحة وهي تنزل على القضيب المتروك قربها.

حاولت سدرا إدخال الخشبة تحت الوتد، لكن الحمل ضغطها قبل أن تستقيم. قال نائل إنه يستطيع تثبيت طرف الحجر، فرفعت عينها إليه.

«الطرف فقط. إن رفعت ما خلفه دفعت السقف إلى الداخل.»

أخرج الختم ببطء، وهو يراقب يد إيلدار. مر أوران بينهما ووضع الخشبة على الأرض.

لم يبحث نائل عن امتداد الطريق البعيد. ثبت نظره على الفاصل الذي انكشف عند الوتد، واستعاد ما أحس به في اليوم السابق: جهة ينعطف إليها الاتصال، وأخرى تنتهي في كتلة لا تعرف موضعها. حدد القصير الذي يراه، ومد العصا إليه.

اهتز طرفها. زاد ضغط الحجر لحظة، حتى خُيل إليه أنه أخطأ، ثم حمل الساعد ثقلًا صغيرًا ثابتًا. أسرعت سدرا بدفع الخشبة إلى موضعها. ضربت الوتد عليها بكعب يدها، وسحبت قضيبها.

«الآن. أعده قليلًا.»

ترك نائل الحمل ينزل بمقدار ما سمحت. استقر الحجر على الدعامة، وتوقف تساقط الغبار. سحب العصا وهو يلهث. كانت المسافة التي صنعها أقل من عرض كفه.

لم يقل أوران شيئًا. ناوله القربة وانتظر حتى شرب.

جثا إيلدار عند الفجوة. وضع السكين على التراب، وأدخل يده حيث كانت يد سدرا. أصغى طويلًا، ثم تحرك إلى اليسار، حتى بلغ الحجر الذي أبعدت الرجال عنه بالأمس.

«هذا مسدود من الداخل. من يحاول رفعه يفتح الشق فوق الرؤوس.»

قال نائل:

«لهذا لم نرفعه.»

رفع إيلدار نظره إليه، ثم أعاده إلى الدعامة.

«لم تكن تعرف ذلك.»

«سدرا عرفت.»

أشار الرجل إلى موضع أخفض تحت الجذر.

«هناك تجويف خدمة قديم. إن وصلتم إليه، فلا تمسوا حجارة الجدار الشرقي. الحمل كله انتقل إليها.»

سألته سدرا عن امتداده. أجاب باقتضاب، فطلبت منه أن يرسمه. جلس إلى جوار رائف وخط بإصبعه على التراب قبل أن ينقله رائف إلى الورقة. لم يعتذر لنائل، ولم يدعُه إلى الاقتراب.

حين نهض، التقط السكين وأعادها إلى غمدها.

قال سايرن:

«سترافقنا حين نعود.»

«سأكون هنا قبل أن تعودوا.»

مر قرب نائل وتوقف. نظر إلى غلاف الختم، ثم إلى الدعامة التي حملت الحجر.

«إن عجزت عن إيقافه، أوقفتك.»

أجابه نائل قبل أن يتدخل أوران:

«فانظر إلى ما أفعل قبل أن تفعل.»

لم يمد إيلدار يده إليه. أخذ مكانه عند الجدار الذي حذرهم منه، وأبعد عنه إحدى قطع الخشب بحذائه.

⁂

كانت نيرفا تسمع النعال على الحصى قبل أن ترى أصحابها. جاء الرجال ثلاثة، وتركوا رابعًا عند المنعطف. أوقفت يدها فوق الطاولة الخشبية كيلا ترى عيونهم أنها تحتاج إلى الاستناد حين تنهض.

عرفت أكبرهم. كان تحت إمرتها يومًا، وكان الآن يحمل على كتفه رباطًا لم تعرفه.

سألها:

«أجئتِ بأمر إيردان؟»

«لو جئت بأمره لما احتجت إلى دعوتك خارج الحراسة.»

رمق خيمة سايرن البعيدة، ثم نقل عينه إلى الرجلين خلفه. كانا أصغر منه، وأحدهما لم يرفع رأسه منذ وصل.

قالت:

«لن أطلب منكم أن تحاربوا تحت راية قاسران. أطلب أن تخرجوا رجال رهفان من الموضع الذي سيُهاجم.»

«ويقتلنا إيردان حين نعود.»

«وإن بقيتم؟»

لم يجب. وضعت أمامه قائمة نقلها قرهان من أسماء الأسرى والجرحى الذين جمعهم رجاله في الأيام الماضية. مر بإصبعه على اسم في منتصفها.

«هذا مات.»

«هو في دار العلاج. أستطيع أن أجعلك تراه.»

رفع عينيه إليها. كانت قد سألَت عن الرجل بنفسها قبل أن تأتي؛ لم ترد أن تجعل حياة غائب ورقة لا تعرف إن كانت صحيحة.

من خلفها وصل صوت سايرن. جاء وحده، وتوقف خارج ظل السقيفة.

قال القائد:

«من يترك سلاحه عند المخزن السفلي، ويحمل جريحه معه، يمر من المعبر الشرقي. رجالي يعرفون العلامة.»

سأله الأكبر:

«وما ضماننا ألا تغلقوه بعد أن ننزل؟»

أجابت نيرفا:

«سأكون فيه.»

التفت سايرن إليها. انتظرت اعتراضه، لكنه سأل عن عدد الذين تستطيع الوصول إليهم.

«لا أعرف قبل أن يعود هؤلاء.»

قال الرجل الأصغر، وهو يرفع رأسه أخيرًا:

«الضباط في التحصين لن يسمحوا لنا بجمع الجرحى.»

«لا تجمعوهم دفعة واحدة. ابدأوا بمن لا يستطيع الوقوف.»

انصرف الرجال على أن يعود أحدهم قبل الغروب. انتظرت نيرفا حتى غابوا، ثم خفضت يدها إلى الطاولة.

قال سايرن:

«قد يأتون برجالهم إليك.»

«لهذا اخترت موضعًا يرون فيه الطريق خلفي.»

«وأرسلتُ رماة يرون الطريق خلفهم.»

نظرت إليه. لم يكن يبتسم. سألته إن كان سيطلق عليهم إن تأخر الرسول، فأجاب أنه سينتظر إشارتها ما داموا لا يتقدمون بالسلاح.

حين رجعا إلى دار الملكة، كانت سدرا واقفة عند حوض الماء، تغسل غبارًا رماديًا عن قضيبها. جلس نائل على الدرجة، وفي كفه احمرار يمتد إلى الرسغ. مر أوران وراءه يحمل خشبة انشق طرفها. لم تسأل نيرفا عما جرى؛ أخذت من رائف ورقة الطريق وطلبت منه أن يحدد لها موضع المعبر الذي وعدت الرجال به.

في الداخل أضاف قرهان إلى خطته عددًا جديدًا. صار عليه أن يطعم من سيخرجون أيضًا.

عاد الرسول قبل الغروب بقليل. جاء وحده، يحمل رباط كتف رفيقه بدلًا من العلامة المتفق عليها.

«حبسوه حين حاول نقل اثنين من المصابين. لكنهم لم يعرفوا أنه جاء إليك.»

أخذت نيرفا الرباط. كانت فيه بقعة داكنة لم تجف.

سألته عمّن أصدر أمر الحبس.

«رادن. نقل رجاله إلى الطريق الشرقي. يقول إن من يترك موقعه يُقتل قبل أن يبلغ المخزن.»

عرفت الاسم. في إحدى حملات رهفان أعاد رادن رجالًا ضلوا في الضباب، وعاد آخرهم يحمل درع رجل آخر فوق درعه. كانت هي التي طلبت ترقيته بعد تلك الحملة.

«هل سمعته أنت؟»

«كنت عند باب المخزن حين قالها.»

«كم رجلًا ينتظر؟»

«أكثر مما يجرؤ على القول.»

فتحت الباب ليدخل إلى سايرن. لم تطلب منه أن يعدها بهم جميعًا.

⁂

مد سايرن الخريطة على ظهر عربة، وثبتها بغمده. في ضوء المصباح كان الجسر الصغير خطين قصيرين، والمعبر الذي أصر قرهان على إبقائه للإمداد انحناءً واسعًا يخرج من حافة الورقة ويعود إليها. وضع ثلاث حصيات عند التحصين، وواحدة عند الطريق الشرقي.

قال لقادة الصفوف:

«القوة عند الجدار تتقدم إلى الساتر الحجري، وتنتظر رفع البوابة. لا تتجاوزونه على صوت القتال وحده.»

سأل أحدهم كيف يعرف أن الذين وصلوا إلى الآلة رجالهم. وصف له سايرن الإشارة، ثم جعله يعيدها. كان يسمع خلفه الرجال يشدون الأربطة على الدروع، وصوت عجلتين تُدفع إحداهما عن الأخرى كي تمر النقالات بينهما.

قلب قرهان قائمته.

«اثنتا عشرة عربة. ست للماء والضماد، وأربع للمؤن، واثنتان فارغتان. الفارغتان في آخر الصف، وتعودان أولًا إذا احتجناهما.»

أراد قائد القوة عند الجدار أن يأخذ اثنتين ليقي رجاله الرمي. رفع قرهان عينيه عن الورقة.

«تأخذ ألواح الجانبين. العجلات أحتاجها لمن لن يرجع على قدميه.»



نظر سايرن إلى الطريق في الخريطة. لو دفعوا الصف الثاني من المعبر المحفوظ للإمداد، ضاق الخناق على المدافعين أسرع. رفع الحصاة من ذلك الطرف، ثم وضعها عند قرهان.

«هذا لك. إذا طلبه أحد، يرجع إليك.»

لم يطو قرهان قائمته. نادى سائقي العربات واحدًا واحدًا، وجعل كل رجل يشير بيده إلى الموضع الذي سيقف فيه. حين ابتعد سايرن نحو الفتحة، كان يسمعه يسأل السائق الأخير عن عرض عربته.

⁂

وصل نائل إلى الفتحة قبل الفجر، فوجد إيلدار جالسًا عندها. إلى جانبه ثلاث دعامات جديدة، وقد حفر بيده موضعًا تتثبت فيه إحداها. كانت سدرا تحصي الرجال الذين جاء بهم قرهان، ثم تعيد بعضهم إلى أعلى المنخفض.

«ثمانية في الداخل. البقية ينتظرون حتى أرسل إليهم.»

قال أحد الرجال إن معهم وقتًا قليلًا. مدت إليه طرف مصباحها.

«إذن لا نضيعه بإخراجك من تحتهم.»

دخل نائل خلفها، منحنيًا حتى احتك كتفه بالحجر. كان المجرى أضيق مما توقع، ثم اتسع بعد ثلاث خطوات، وانكشف سقف منخفض تسنده كتل مائلة. ربط رائف حبلًا عند المدخل وتركه وراءهم. حمل أوران آخر المصابيح.

في العتمة لم يعد الرسم خطًا على ورقة. صار عليه أن يزيح ركبته ليمر حبل، وأن يتوقف لأن من أمامه توقف، وأن ينتظر الدخان حتى يجد طريقه إلى شق في السقف.

بلغوا التجويف الذي وصفه إيلدار. وضع الرجل كفه على الجدار الشرقي، ثم دلهم على الجانب المقابل. هناك كانت ثلاث حجارة تقطع الطريق، تفصلها شقوق ملأها الطين.

عمل نائل مع سدرا على أولها. لم يحاولا سحبها؛ أفرغا ما حول قاعدتها، ثم أمالاها فوق خشبتين حتى تدحرجت ببطء إلى موضع أوسع. حمل الرجال ما تفتت من أطرافها في أكياس صغيرة. بعد الحجر الثاني صار الهواء أبرد، وسمعوا ضربة وراء الثالث.

توقفت سدرا. ضربت الجدار بمقبض قضيبها مرتين، ثم مرة واحدة.

جاءها الرد بعد انتظار. ثلاث ضربات متباعدة.

اقتربت حتى لامس خدها الحجر.

«من هناك؟»

وصل الصوت مقطوعًا. لم يفهم نائل منه إلا كلمة المحجر.

أعادت السؤال عن الاسم، ثم أغمضت عينيها لحظة.

«إنه الذي علمني شق الحجر. كانوا يأخذونه مع عمال تدعيم الجدران.»

سأل رائف عن عددهم. رفعت سدرا إصبعها كي ينتظر، وأصغت إلى الرد. سبعة أحياء، واثنان لا يتحركان، وماء بلغ أقدامهم بعد أن أغلق الحراس مخرجهم. كانوا في حفرة جانبية تحت الطريق الذي استُعمل لنقل الأحمال إلى التحصين.

جاء سايرن من الخلف بعدما بلغه خبر التوقف. لم يجد موضعًا يقف فيه منتصبًا. استمع إلى سدرا، ثم نظر إلى رائف.

«كم يبقى حتى يطلع الضوء؟»

رفع رائف المصباح ليرى خطوطه.

«إن فتحنا هذا الجانب، لن نبلغ مخرجنا في الموعد.»

قال سايرن لسدرا:

«هل نصعد إلى الطريق أولًا ثم ننزل إليهم؟»

وضعت يدها على الجدار. أبعدت المصباح حتى لا يصل الزيت إلى الماء المتسرب بين الحجارة.

«الحمل فوقهم يتحرك الآن. إن دفعنا الرجال عبر الطريق، زاد.»

تطلع نائل إلى الحجر الذي عملوا عليه. لقد اتجه إليه طوال الليل لأنه يقربهم من الموضع المحدد في الرسم. أما الصوت فكان يأتي من يمينه، وراء طبقة لم يضعوا لها دعامة.

قال:

«نفتح إليهم.»

نظر سايرن إلى الممر خلفه. الرجال الذين جاءوا للقتال عالقون في صف لا يستطيع آخره سماع أوله.

سأل سدرا:

«ما الذي تحتاجينه؟»

«كل الخشب الطويل هنا. ومن يحمل المصابين حين نخرجهم.»

أرسل سايرن رجلًا إلى قرهان ليؤخر تقدم القوة عند الجدار. ثم خلع عباءته ولفها، ووضعها تحت ركبة المصاب الأول الذي قد يصلهم.

⁂

من المعبر الشرقي رأت نيرفا الضوء يبلغ أعلى التحصين قبل أن تتحرك بوابته. ظهر أول المنسحبين عند المخزن السفلي؛ ثلاثة رجال يحملون رابعًا،

ثم رجل يمشي وراءهم وبيده رمح. أشارت إلى الرمح، فوضعه على الأرض، وتراجع عنه خطوتين قبل أن يكمل.

أرسلت أحد جنديي قاسران ليعينهم على حمل المصاب. تحت رأسه عباءة عقدوها على عجل، وكان طرفها يجر الحصى. انتظرت حتى دخلوا وراء الحاجز، ثم سألت الرجل الذي يسير وحده عن الآخرين.

«ينتظرون أن يروا إن كنا نمر.»

صعدت إلى موضع يستطيعون رؤيتها منه. شد الألم ساقها، فثبتت قدمها السليمة خلف حجر. رفعت ذراعها نحو المخزن، ودعتهم أن يواصلوا النزول. عند الجدار الغربي كانت الدروع مصطفة خلف الساتر، يلمع أعلاها حين تميل. لم تتقدم.

مر رسول يطلب الطريق إلى قرهان. سمعته يقول للحارس إن العمل في الداخل تأخر، وإن الرجال في الحفرة يحتاجون إلى الخشب. مضى قبل أن تسأله. رفعت نيرفا بصرها مرة أخرى إلى شقوق الرمي فوق الصفوف المنتظرة؛ أخذت رؤوس تظهر بينها، أكثر مما كانت قبل قليل.

عاد اثنان من المنسحبين إلى المخزن ليحملا رفيقًا. ومن الطريق الأعلى نزل رجال يحملون سلاحهم، في مقدمتهم رجل تعرف مشيته. كان رادن يهبط على جانب نعله الأيسر، كما صار يفعل منذ جرح قديم.

قالت للجندي بجانبها:

«أبقوا طريق الخارجين مفتوحًا.»

ثم رفعت يدها إلى الرماة الذين وضعهم سايرن فوق المعبر، وأبقتها مرفوعة حتى رأت رجلهم الأول ينتبه إليها.

⁂

في الممر أبعد نائل المصباح عن وجه سدرا. كانت قد بدأت تنزع التراب من شق ضيق، وتطلب من الرجل خلف الجدار ألا يحرك أحدًا حتى تسمع صوته من فتحة الهواء.

لم يستطع نائل أن يرى موضع يدها حين أدخلتها. أمسك ساعدها حتى لا ينزلق، فيما دفع أوران الدعامة تحت الكتلة. ارتفع الحجر قليلًا، واندفع منه ماء عكر غمر نعالهم. ظهر وراءه وجه رجل ملتصق بالأرض.

«أبعد رأسك»، قالت سدرا.

«لا أستطيع.»

وضعت قضيبها بين الحافتين، وطلبت من نائل أن يتبع خطه وحده. رأى على ذراعها أثر حرق قديم، وشريطًا جديدًا من الدم قرب الإبهام. نقل ثقل العصا إلى النقطة التي حددتها، وحاول أن يمد الاتصال القصير الذي سبق أن ثبته في الخارج.

هذه المرة لم يستجب الحجر. أصغى إلى الرعشة في كفه، فوجدها تمتد إلى أعلى، حيث لم يكن يرى شيئًا.

«لا أقدر من هنا.»

لم تقل له أن يحاول أقوى. أخرجت القضيب، وتحركت على بطنها إلى موضع أخفض.

«إذن من هنا. أمسك المصباح.»

شقت بأداة صغيرة طبقة رخوة تحت الكتلة. استغرق ذلك وقتًا شعر خلاله نائل بالماء يبرد ساقيه. وحين أعادت القضيب، انحرف الحجر على قاعدته بدل أن يرتفع. وجد نائل طرف الاتصال قريبًا، فأمسكه حتى انفتح الفراغ قدر ما يكفي ليدين.

سحب أوران الرجل من تحت إبطيه، وتلقاه سايرن من الخلف. كانت ساقه ملفوفة بقطعة ثوب، وخرج حذاؤه وحده من الفتحة بعده.

مدت سدرا رأسها إلى الداخل.

«الذي بجانبك الآن. لا تدفعوه.»

خرج الرجال واحدًا بعد آخر. وحين بلغت الذي تعرفه، سمعها نائل تقول له إن يده صارت أخف مما كانت يوم تضرب يدها عن الإزميل. ضحك الرجل، ثم انقطع ضحكه بسعال. لم تتركه حتى أمسكه حاملوه.

خرج آخر الأحياء قبل أن ينهار جزء من السقف الداخلي. دفع الهواء الماء نحو وجوههم، وانطفأ المصباح الأقرب. تلقى نائل الصدمة على كتفه، وسمع أوران يأمرهم بالتراجع. لم يحاول تثبيت السقف كله. ترك الاتصال وانسحب على ركبتيه، وحبل رائف مشدود تحت يده.

في التجويف الأوسع عدّت سدرا الخارجين. سبعة. نظرت إلى الفتحة المسدودة، ثم أخذت المصباح السليم من أوران.

قال سايرن:

«نعود؟»

فحصت الجدار الذي اختاروه أولًا. رفعت الضوء إلى شق جديد في أعلاه، ثم هبطت به إلى الأرض.

«هذا الطريق انتهى. لكن الذين خرجوا يعرفون أين يرفعون الحجر من الناحية الأخرى.»

استدارت إلى الرجل الذي علمها. كان مسندًا إلى الحائط، يضم قدمه العارية إلى جسده.

سألته عن آخر مخرج كانوا يستعملونه. أشار بيده إلى أسفل، ثم رسم على التراب انعطافًا قصيرًا.

وضع رائف ورقته قرب يده، وترك له القلم.

⁂

ظهر أول الضوء في أعلى شق بعيد حين بلغوا المخرج الجديد. لم يكن بابًا. درجات محفورة في الصخر تنتهي تحت لوح ثقيل، وعلى حافته حبيبات سوداء من الفحم. قال عامل المحجر إنهم كانوا يرفعونه لإنزال الأدوات، ثم يخفونه تحت ما يخرج من الأفران.

وقف نائل في أسفل الدرج، لا يجد في ذراعيه قوة تكفي لرفع العصا كما رفعها في الليل. ناوله أوران قطعة خبز مبللة بقليل من الماء.

«كل.»

أخذها وأصغى. فوق اللوح خطوات، ثم جرّ شيء ثقيل، ثم صمت. وضع سايرن أذنه على الحجر، وانتظر حتى ابتعد الصوت.

لم يكن فتح المخرج من عمل نائل وحده. ثبتت سدرا خشبتين تحت طرفه، وصعد أربعة رجال يدفعون معًا. أمسك نائل اتصالًا قصيرًا عند المفصل المدفون، لا ليحمل اللوح، بل كيلا تنخلع الكتلة التي يستند إليها. ارتفع مقدار إصبعين، ثم شبرًا. اندفع من الفراغ رماد أسود غطى شعر الرجل الأول.

رفع سايرن رأسه، ونظر إلى الجانبين. خرج، ولحق به اثنان. سمع نائل احتكاك حذاء، وصوت نفس انقطع تحت كف. لم تأتهم إشارة الصعود إلا بعد ذلك.

كانوا في ساحة صغيرة خلف مخزن الفحم. إلى اليمين جدار التحصين، وإلى اليسار ممر تنتهي رؤيته عند عربة مقلوبة. أمسك أحد رجال سايرن حارسًا عند الحائط، فيما ربط آخر يدي رجل مستلقٍ قرب الباب. رفع أوران نائل من مرفقه حتى استقامت ركبتاه.

أشار سايرن إلى رائف أن ينتظر مع سدرا عند المخرج. لم يأخذ معه إلا الرجال الذين يستطيعون العدو. اختفوا خلف العربة، ثم جاء من بعيد صوت مزلاج كبير، أعقبه صياح.

قال أوران:

«إلى الحائط.»

اصطدم سهم بالفحم فوق رأس رائف، وتناثر السواد على الورقة التي كان يمسكها. جذبه نائل إلى داخل الظل.

⁂

بلغ سايرن آخر الممر، فتوقف بظهره إلى قائم خشبي. على الخريطة كانت بين مخزن الفحم وبيت الآلة ساحة خالية. أمامه الآن صف من العربات المشدودة بعضها إلى بعض، وخلفها رماح تملأ الفراغ بين الصناديق. أما الطريق الأعلى فكان مكشوفًا لمن يرمي من الشرفات.

أمسك الرجل الذي كاد يخرج وراءه.

«من خلف العجلات.»

انحنى الأول، وتبعه اثنان. رآهم سايرن يمرون تحت صف الرماح حتى بلغوا آخر عربة. حين نهض صاحب الرمح ليضربهم، خرج سايرن من الجانب الآخر. تلقى الضربة على درعه، ودفع الخشب بكتفه، ثم ضرب اليد التي حاولت جذبه من الحافة. فتح رجاله فراغًا بين عربتين، فعبره إلى باب الآلة.

أصابه مقبض رمح تحت الأضلاع. تراجع نصف خطوة، وصار الرجل الذي أمامه أقرب مما يحتمله السيف. ترك سايرن حدّه يهبط، وضربه بحافة الدرع في الوجه. أمسكه من ثوبه ودفعه إلى رفيقه، ثم دخل وراءهما قبل أن يستقيما.

صاح أن تُدار البكرة.

دار الذراع، وارتفع الخشب عن الأرض قليلًا. رأى تحت البوابة أحذية الصف الأول من رجاله تتحرك نحوه. ثم ارتطمت أسنان الآلة بشيء، وارتد الذراع على صدر من يدفعه.

توقفت البوابة.

خرج سايرن إلى جانبها، ورفع يده ليُرجع الرجال إلى الساتر. كان الصف الأمامي قد غادره على ارتفاع الخشب، وصار بين الباب والحجر. سقط سهم في رقبة رجل، فضرب درعه بيديه كأنه يحاول أن يخلعه. انحنى رفيقه إليه، فأصابه سهم ثانٍ في الفخذ.

صرخ سايرن بحملة الدروع أن يغطوهما. انحنى إلى الفتحة، ورأى قائد الصف يزحف على ركبتيه ليسحب المصاب. مد يده، ولم تبلغ أصابعه ذراع الرجل.

«سدرا. أحضروها!»

مضى رسول من خلفه. عند الجهة البعيدة من الساحة ارتفع دخان أسود، ثم رأى شعلة طويلة فوق حاجز الطريق. صعد إلى درجة جانبية يتبين منها المنخفض. كان رجال الحامية ينسحبون من الجسر الصغير، وآخرهم يدفع عربة مشتعلًا قاعها إلى العوارض.

مالت العربة، واشتعل جانب الجسر كله.

تحت الدخان رأى أول نقالة تعود أدراجها. وراءها توقفت عربات، وتزاحمت الدواب حين حاول السائقون تدويرها في الطريق الضيق. انقطع صف الماء عند المنعطف.

وصل قرهان إلى الجانب الخارجي من البوابة على قدميه. كان يجر لوحًا أمام رجلين يحملان جريحًا. صاح سايرن باسمه، فرفع رأسه.

«المعبر؟»

«مفتوح. أحوّلهم إليه.»

«نحتاج الدروع هنا.»

نظر قرهان إلى الرجال المحصورين بين الساتر والباب، ثم إلى عمود الدخان.

«ستصل الألواح. أبقِ لهم هذا الجانب.»

أشار إلى موضع تحت البرج، ورجع يعدو. رأى سايرن أحد سائقي العربات يرفع السوط فوق الدابة العالقة. وصل إليه قرهان، وانتزع السوط من يده، وأشار إلى الحبال. قطع الرجال رباط العربة، وأخرجوا الدابة وحدها، ثم دفعوا العربة إلى الحافة حتى انفتح الطريق للنقالات.

التفت سايرن إلى رجاله داخل الساحة. حاولت الحامية استعادة بيت الآلة، تتقدم من الطريق الأعلى بدرع عريض يحمله رجلان. طلب أن يتركوا لها موضعًا بين العربة والجدار. وحين دخل الدرع في الضيق، اصطدم طرفه بالعجلة. هجم على حامله الأقرب قبل أن يستطيع تدويره.

عبر كتف الرجل رأى سدرا تصل إلى الآلة، وخلفها نائل يحمل المصباح.

⁂

جاء رسول يركض إلى سدرا.

«السلسلة انحشرت. القائد يريد من يعرف موضع البكرة.»

تحركت، فتحرك نائل معها. أوقفه أوران عند أول الممر.

«العصا إلى جانبك. لا ترفعها وأنت تجري.»

ردها إلى الحزام، وعبر خلفه. عند الزاوية رأى أول قتيل في ضوء الصباح؛ شابًا يضع ذراعه فوق وجهه، كأنه يحجب الشمس. اضطر أن يخطو فوق ساقه ليصل إلى بيت الآلة.

كانت السلسلة مشدودة بين بكرتين، وتحت إحداهما قطعة حديد حُشرت عمدًا. جرب رجل ضربها بمطرقته، فارتجت الأسنان كلها.

صاحت سدرا:

«توقف! ستكسر المحور.»

في الخارج تكرر الصياح. تراجع رجال قاسران عن فتحة الباب حين اندفع نحوهم رماة من الممر المقابل. رأى نائل سايرن يدفع أحدهم بكتفه، ثم يدور حول قائم خشبي ليمنع ثانيًا من بلوغ الآلة. لم يكن في المعركة موضع ينتظر حتى يفرغوا من عملهم.

طلبت سدرا حبلين. مررت أحدهما حول السلسلة، والآخر تحت الذراع، وأشارت إلى أربعة رجال أن يسحبوا حين تأمرهم. وضع نائل عصاه قرب قاعدة البكرة المتشققة، فهزت رأسها.

«هذه نستطيع رفعها. راقب الحجر تحت قدم الرجل. إن انفصل، قل لي.»

أمسك المصباح بدل العصا. كان ذلك كل ما احتاجته منه تلك اللحظة.

شد الرجال، فخف الحمل عن قطعة الحديد. سحبتها سدرا بملقط التقطته من الأرض. أفلتت الذراع فجأة، وجذبت الحبل من بين أيدي الرجال حتى سلخ جلد كف أحدهم. ارتفعت البوابة أكثر، واندفع أول صف من الخارج.

من بيت الآلة رأى نائل الدروع تتقدم في الطرف البعيد من الساحة، والرمي يأتيها من الطريق الأعلى.

⁂

عند المخزن الشرقي انطلقت الصرخة قبل أن ترى نيرفا من ضربه رادن.

تراجع الخارجون دفعة واحدة. سقط حامل النقالة الأول، فانزلقت العباءة عن يد الثاني، واصطدم المصاب بالأرض. وراء رادن انتشر رجال وحدته بين المخزن والطريق، رماحهم نحو ظهور المنسحبين.

نزلت نيرفا عن الحجر.

«رادن!»

رفع رأسه إليها. عرفها، فرأت سيفه يهبط قليلًا، ثم يعود إلى موضعه.

«هؤلاء يتركون موقعهم.»

«بأمري. أبعد رجالك.»

نظر إلى جنديي قاسران خلفها.

«ومَن أمرك؟»

على يسارها حاول رجل أن يسحب النقالة من طرفها. التفت إليه أحد الرماحين، فرفعت نيرفا يدها نحو الرماة فوق المعبر. ظهر رأس سهم بمحاذاة الحجر، ثابتًا على صدر الرجل.

قالت:

«ضع الرمح، ومر معهم.»

أخذت ساقها تضرب من داخل الرباط. قصّرت خطوتها التالية، ووقفت بحيث يبقى المخزن أمامها. خلف رادن وجه تعرفه من صفوف التدريب، وآخر

أصغر لم تره من قبل. خاطبتهما باسمي رتبتيهما، وطلبت أن يفسحا الطريق للجرحى. الأول نقل عينيه إلى قائده. الثاني شد قبضته على الرمح.

قال رادن:

«من يتحرك، أضربه.»

«لقد رأيتك تحمل جريحًا ليلتين.»

«كان من رجالنا.»

أشارت إلى صاحب النقالة الذي يحاول الجلوس.

«وهذا؟»

لم ينظر إليه. تقدم إلى الرجل الذي أخفض رمحه، وقبض على رباط كتفه. جذبَه نحوه حتى انكشف ظهره لنيرفا، ورفع سيفه.

دخلت من جانبها السليم. صدت الضربة قبل أن تبلغ الرقبة، فاندفع حد السيفين نحو قائم المخزن. انفك الرباط من يد رادن، وسقط الرجل بينهما. حاولت نيرفا أن تدفع خصمها إلى القائم، لكن ساقها خذلتها، واضطرت إلى الاتكاء عليه لحظة.



رأى رادن ذلك. رد كوعه إلى وجهها، وأبعدها بما يكفي ليرفع سيفه مرة أخرى.

قالت اسمه للمرة الثانية.

هوت الضربة. أدارت كتفها، فشق الحد قماش كمها الفضفاض ومر بعيدًا عن الجلد، ودخلت بسيفها تحت ذراعه قبل أن يستردها. أحست بثقله يصير على قبضتها. دفعته عنها، فسقط عند عتبة المخزن، وفمه يتحرك.

لم تسمع ما قاله. من فوقها طار سهم إلى الرماح التي تقدمت بعده. صاح جندي قاسران بالرجال أن يلقوا السلاح. مد أحدهم يده إلى نيرفا، فتراجعت إلى القائم، وسيفها ما زال ممدودًا بينهما.

خفض الرجل رمحه.

رمت وراءه يد أخرى سلاحها، ثم تكاثرت الأصوات على الحجارة. طلبت نيرفا أن يُفصل المسلحون عن الذين خرجوا قبلهم، وأن يحملوا المصاب من الأرض. حين تحركت النقالة أخيرًا، ظهر رادن خلفها، وعيناه مفتوحتان عند قدميها.

أرادت أن تنحني، فاشتد الجرح. استدعت الجندي الذي معها، وأشارت إلى ثوبه.

«غطِّ وجهه. اسمه رادن.»

مر الرجال إلى جانبها. بين أربعة منهم ظهر صاحب الرباط الملطخ، يسندونه من تحت ذراعيه. مدت يدها ليمسكها حتى تجاوز العتبة، ثم أعادتها إلى القائم.

من الجهة الغربية ارتفع هتاف، وتبعه وقع أقدام كثيرة. رفعت نيرفا بصرها، فرأت البوابة مفتوحة أخيرًا، وصفوف قاسران تدخل متقاربة تحت الدروع.

⁂

رأى نائل الرجال يعبرون إلى الساحة، وفي وجوههم الغبار الذي لم يدخل الممر معهم. حمل اثنان جريحًا ووضعاه قرب بيت الآلة. كانت أسنانه تضرب طرف جلده الذي عض عليه، وساقه مثقوبة فوق الركبة.

قال أحد حامليه لسدرا:

«لو ارتفع الباب حين وصلنا...»

انقطع كلامه وهو يحاول حل الرباط. طلب منها أداة تقطع الحزام، فأعطته إياها. جلس نائل عند قدم المصاب، وأمسكها حين طلب الرجل ألا تتحرك.

«انتظرنا من أول الضوء»، قال الحامل. «ثم خرجوا علينا من الشقوق.»

رأى نائل على ردائه ماء الحفرة الذي جف في خطوط بيضاء. في الداخل كان قد عد سبعة وجوه خرجت من الحجر. أمامه الآن رجل يسأل عن أخيه، ويعيد السؤال كلما انحنى أحد فوقه. مد نائل القربة إلى فمه، وطلب من حامله أن يصف الأخ كي يسأل عنه عند الباب.

حاولت مجموعة من المدافعين الالتفاف من ناحية مخزن الفحم. سحب أوران رائف خلف عربة، ودفع نائل إلى جواره. رفع سايرن صوته من الجهة الأخرى، فجاءه رجال قرهان عبر الساحة. اصطدمت الدروع، وانكسر رمح على حافة الباب. سقط أحد رجال قاسران قريبًا من سدرا، فجرته من حزامه حتى صار خلف الحائط.

امتد القتال إلى ما بعد ارتفاع الشمس. خرج نائل مرتين ليحمل ماء إلى المصابين، وعاد في الثالثة مع إيسا التي وصلت وراء حاملي الضمادات. وضعت يدها السليمة على حافة حوض، وجمعت ما تفرق فيه من الماء إلى ناحية تستطيع القرب بلوغها. لم تطلب من ذراعها المصابة أكثر من أن تثبت القماش. امتلأت ثلاث قرب، ثم جلست على الدرجة لتستريح.

سألها عن السفينة وسط الضجيج.

«الحبال ثابتة. والرجلان وجدا موضعًا فوق المرسى يريان منه من يدخل. لن يحركاها قبل أن نعود أو نرسل إليهما.»

أعطته القربة الأخيرة، فحملها إلى أوران.

كان العجوز واقفًا عند العربة، وإحدى يديه على حافتها. أخذ الماء وشرب، ثم أعاد القربة من غير أن يرفع رأسه. ظن نائل أنه يراقب جريحًا تحتها، حتى رأى أصابعه تشد الخشب حين حاول الاستقامة.

«أصبت؟»

«أمهلني قليلًا.»

لم يجد دمًا على ثوبه. انتظر إلى جانبه حتى استعاد أنفاسه، وحين تقدم ليسنده، وضع أوران القربة في يده وأشار إلى رجل قريب يحتاج إليها. ذهب نائل، لكنه التفت قبل أن يبلغ الرجل. كان معلمه قد جلس أخيرًا.

⁂

وصلت أول ألواح قرهان إلى الساحة محمولة بين أربعة. خلفها جاء رجال يجرون أكياس الرمل، واثنان يدفعان عربة حُلت أبوابها الجانبية. رأى سايرن لون الخشب الأبيض في المواضع التي نُزعت منها المسامير. كانت إحدى عربات المؤن التي تركها قرهان على الطريق.

«ثماني قرب هنا»، قال قرهان. «والبقية مع الجرحى. كل عربة تصعد تحمل ماء، وتنزل بمن يحتاج إلى حمل.»

أراد سايرن أن يدفع رجاله صعودًا قبل أن تتجمع الحامية عند المنعطف الأخير. وقف قائد الرماة إلى جانبه وأراه الشرفة التي تغطي الطريق. كان تحتها سلم حجري، وفي كل درجة رجل يستطيع أن يطعن من يقترب.

أدخل سايرن سيفه في الغمد حتى يستطيع أن يمسك اللوح. حمل طرفه مع رجلين، ورفعوه أمام الذين يضعون أكياس الرمل. اصطدمت فيه السهام قريبًا من يده، وانشقت عقدة في الخشب. نزل أحد حامليه على ركبة واحدة. نقل سايرن يده إلى موضعه، وأمره أن يخرج من خلف اللوح.

استقرت الأكياس عند الزاوية. صعد الرماة خلفها، وصار يمكنهم بلوغ الشرفة. سألهم سايرن عن الرجل الذي يقف عند جرس الإنذار، فحدده قائدهم، ثم رفع قوسه.

حين انقطع الجرس، تحرك الصف الأول.

بقي المدافعون على الدرج حتى اصطدمت الدروع. من أسفل رأى سايرن رجاله يصعدون درجة ويخسرونها، ثم يصعدونها مرة ثانية. أرسل الصف الاحتياطي إلى جانب المخزن ليلتقي بالطريق خلف الشرفة. كان باب ضيق يعترضهم. أمر أن تُحمل إليه العارضة التي أُخرجت من بوابة التحصين.

في الضربة الثالثة انشق الباب حول القفل. خرج رجل منه رافعًا رمحه، فأصابه سهم من أعلى؛ من شرفة رفاقه. سقط عند العارضة، وتردد الذين خلفه. دفع رجال قاسران الخشب إلى الداخل، ودخلوا وراءه.

من الطرف الآخر ظهر هاربون. رفع سايرن يده ليمنع الرمي على الذين ألقوا سلاحهم. ثم رأى فوق أحد الأسطح رجالًا يجمعون الحجارة على حافة تطل على الجرحى.

أعاد سحب سيفه، وأرسل قائد الرماة إلى ذلك الجانب.

عند الطريق الشرقي ظهر رسول نيرفا. المعبر مفتوح، والرجال الذين قبلوا الاتفاق خرجوا، لكن حامية الموقع الجنوبي ما زالت متماسكة. أرسل سايرن رجالًا يغلقون طريقها إلى التحصين، وأبقى مخرجًا نحو الأرض المكشوفة تحت نظر فرسانه.

عاد قرهان إلى البوابة، حيث اصطفت عربات الجرحى. رفع ثلاثة أصابع إلى السائق المنتظر، فأنزل الرجل ثلاثة أكياس من العربة إلى أيدي الواقفين. حين فرغ موضعها، وضعوا فيه نقالة أخرى.

⁂

قرب الظهر سكت الرمي من الطريق الأعلى. جاء رسول إلى قرهان، ثم آخر إلى سايرن. لم يسمع نائل كلامهما. رأى سايرن يمسح وجهه بكمه، ويعيد

سيفه، ثم يخرجه ثانية حين صاح رجل من بعيد. كانت جماعة تحاول الفرار من آخر بوابة خلفية.

لم يطاردها وحده. أرسل فرسانًا إلى الطريق الواصل بينها وبين المواقع التالية، وأبقى أكثر رجاله عند التحصين. وبعد وقت وصل قائد الحراسة المستسلم، لا يحمل سلاحًا، ومعه مفاتيح المخازن.

عندئذ فقط سمح سايرن بإزالة الحواجز من وسط الساحة.

جاءت نيرفا متأخرة. كان معها الرجل الذي قابلها تحت السقيفة، يسند رفيقه صاحب الرباط الملطخ. دفعت بهما إلى حاملي النقالات، ثم وقفت أمام سايرن. نظر إلى كمها المشقوق، فجمعت طرفه بيدها قبل أن تتكلم.

«خرج من استطاع الوصول إلى المعبر. هناك من أُغلق عليهم في الموقع الجنوبي.»

خفضت يدها عن الكم.

«رادن ضرب المنسحبين. قتلته عند المخزن.»

ثبت سايرن نظره عليها لحظة، ثم أفسح لها موضعًا عند طرف العربة لتستند إليه.

استدعى سايرن قرهان. لم يتحدثا عن نصر مكتمل. حددا ما يحتاج إلى رجال، وما يكفي أن يُحاصر حتى يفرغ من مؤونته، وأرسلا إلى ميرافا خبر فتح الطريق.

قبل أن ينصرف قرهان، فتح سجلًا صغيرًا كان قد ربطه إلى حزامه. احتاج إلى أن يسوّي الصفحة بكفه؛ التصق بها غبار أحمر من إصبعه.

«سبعة وعشرون قتيلًا من رجالنا حتى الآن. تسعة عشر ما زالوا في دار العلاج ولم يصلني خبرهم. وأحد عشر لم يجمعهم أصحاب صفوفهم بعد.»

رفع سايرن رأسه.

«المفقودون؟»

«بين من نُقلوا، ومن بقي تحت الطريق الأعلى. أرسلنا إليهم.»

قلب الصفحة.

«عادت تسع عربات. اثنتان عند دار العلاج، وواحدة تركناها تحت الجسر. أكلت النار محورها قبل أن نستطيع سحبها.»

وقف نائل قرب السور، يمسك القربة الفارغة. رأى سايرن يمد يده إلى السجل، ثم يردها.

«اقرأ الأسماء.»

بدأ قرهان. عند الاسم الرابع سأله سايرن إن كان الرجل الذي جاء من قرية المحاجر. قال نعم، وتابع. وعند اسم آخر اعترض قائد الصف وقال إنه رآه حيًّا حين حملوه. وضع قرهان علامة بجانبه، وأرسل رجلًا يسأل عنه قبل أن يعود إلى القراءة.

لم يعرف نائل أكثر الأسماء. عرف واحدًا حين وصفه القائد: صاحب الحزام الأزرق الذي وقف خلفه عند مدخل الممر، وحمل الخشب إلى سدرا. سأل عن موضعه، فدلّه الرجل على صف قرب الحائط. وضع القربة، ومشى حتى رأى الحزام ظاهرًا من تحت العباءة التي غطت الجسد.

انحنى ورد طرفها فوق القدم المكشوفة. حين عاد، كان قرهان قد وصل إلى آخر الأسماء، وسايرن ينظر إلى الطريق الذي تصعد منه العربة التالية.

اقترب رائف من نائل، وقد اسودّ جانب وجهه بالفحم.

«إيلدار ينتظر. يقول إننا إن أردنا النزول، ننزل قبل أن يدخل رجال التفتيش كل الحُجر.»

بحث نائل بعينيه عن أوران. وجده قد نهض، ينفض عن ركبته ترابًا لم يخرج كله.

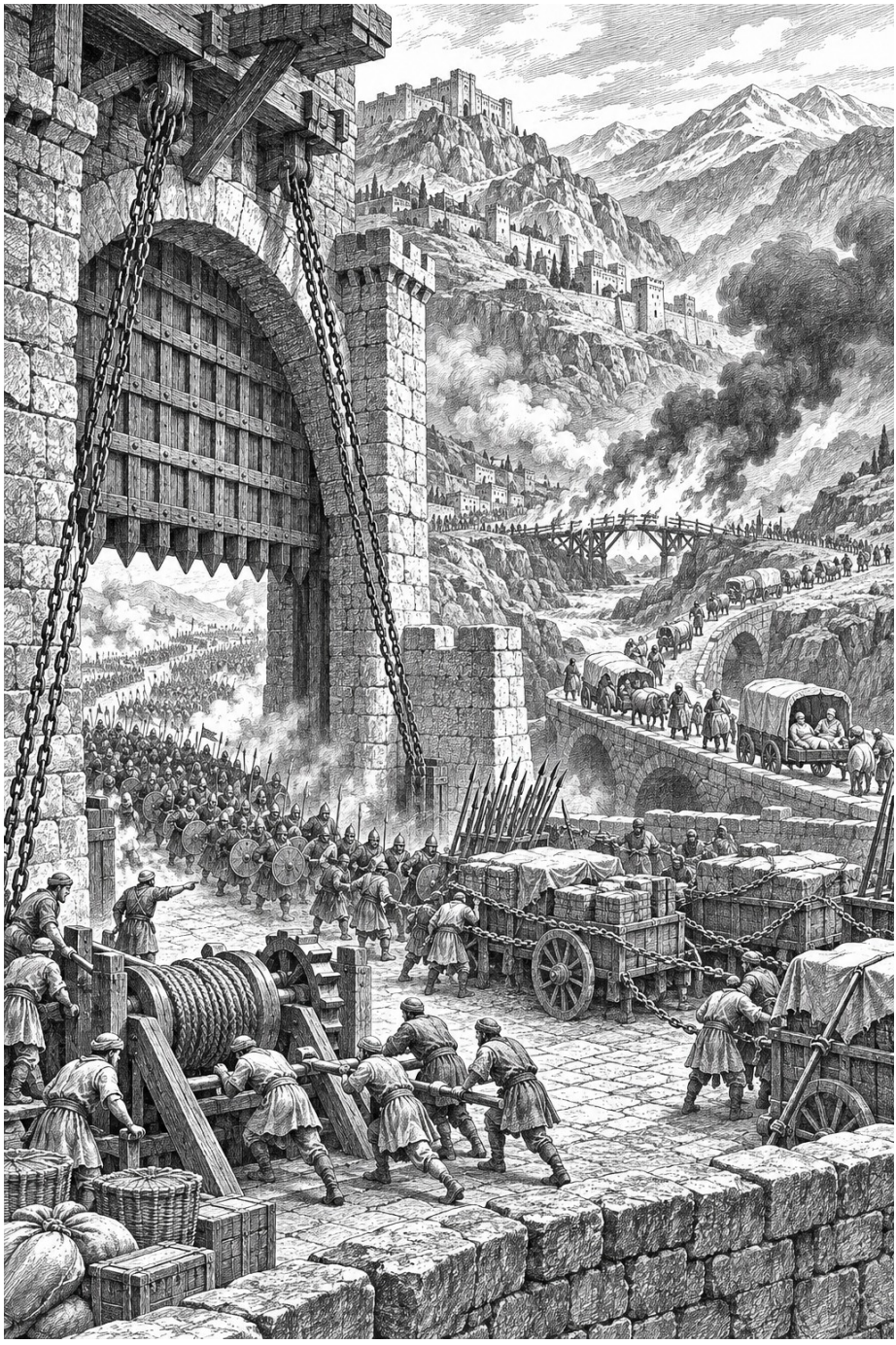

⁂

لم تكن حجرة الأثر في عمق بعيد. وصلوا إليها من ممر خلف التحصين، ثم نزلوا درجات ضيقة حُفرت في طبقة أقدم من البناء الذي فوقها. كان إيلدار يعرف مواضع الانخفاض في السقف قبل أن يبلغها. سار أمامهم يحمل الضوء، وتوقف عند باب أزيلت إحدى عارضتيه.

مد أصابعه إلى أثر القطع في الخشب.

قال سايرن:

«رجالنا لم يصلوا إلى هنا.»

انحنى رائف عند الأرض. التقط شظية فاتحة اللون، ثم نظر إلى الغبار الذي انزاح في خط طويل نحو جانب الباب. خلفه ظهر شق بين الجدار والكتلة المجاورة، ضيق بما يكفي لمرور رجل على جانبه.

لم يدخل سايرن الشق. نادى أحد الحراس، وأمره أن يأتي برجلين ومصباح آخر.

لمح رائف طرف ورقة بين الصندوق والجدار. سحبها، فخرجت مثنية وقد انمزق أحد أطرافها تحت قاعدة الصندوق. كان فيها رسم للممر من الجهة الأخرى، وعلامات على ثلاثة مواضع من الجدار. ناولها سايرن، فرأى نائل تغيرًا في قبضته قبل أن يقرأ الاسم.

«إيردان؟»

قلب سايرن الورقة. في أسفلها أمر لقائد الحامية بأن يحافظ على هذا المسلك، وألا يردمه مع المخارج الأخرى. الختم واضح، وتاريخ الأمر يعود إلى ما بعد استيلائه على رهفان.

«أرسل إليهم طريقًا لم أجده في رسومنا»، قال سايرن.

سأل رائف:

«هل جاء بنفسه؟»

«هذه لا تقول إنه جاء.»

أعاد النظر إلى الباب المقطوع.

«لكن من كان هنا عرف كيف يخرج.»

عاد الحارس بعد قليل. وجد الممر يتصل بمنحدر وراء آخر موضع احتلوه، وعلى التراب عند نهايته آثار نعال حديثة. لم يجد رجالًا ينتظرون. أمره سايرن بتثبيت الحراسة، ثم طوى الورقة ووضعها في ثوبه.

نظر نائل إلى الشق مرة أخرى. كان آل فالدار يعرفون طريقًا تحت المكان الذي جاؤوا لتحريره، وإيردان، وهو بعيد عنه، يترك أثر يده في حجارته.

داخل الحجرة وُضع الأثر في تجويف لا يلمسه الضوء من الباب. اقترب إيلدار وحده أولًا، وأزاح غطاءً ثقيلًا عن موضعه. رأى نائل سطحًا داكنًا، وفي جانبه عروق أفتح، كأن قطعة صغيرة من الجبل صُقلت حتى استوت في راحة اليد.

لم يرفعه إيلدار. تفحص الموضع الذي حوله، ثم أطلق نفسًا بطيئًا.

قال سايرن:

«لم يأخذوه.»

«لم يعرفوا كيف يخرجونه من موضعه، أو لم يؤمروا بذلك.»

نظر إيلدار إلى نائل.

«لا تمد يدك.»

لم يكن نائل قد تحرك. وقف عند الدرجة الأخيرة، وأحس بالختم دافئًا رغم القماش. تحت الدفء استجابة بعيدة تشبه ما وجده في الحجر، لكنها أعمق من اتصال ممر بممر.

وصلت ميرافا بعد العصر. دخلت الساحة على قدميها، وقد تركت فرسها عند المعبر. لم تنزل إلى الحجرة فورًا؛ مرت بين الجرحى، وسألت قرهان عن الماء والمخازن، ثم وقفت عند العمال الذين أخرجتهم سدرا. انتظر نائل قرب الدرج حتى انتهت.

في الحجرة ضاق المكان بهم. جاء سايرن وأوران وسدرا ورائف، وأغلق إيلدار الباب بعدما طلبت الملكة أن ينتظر الحرس في الخارج. لم تكن نيرفا بينهم؛ رآها نائل قبل نزوله تتبع رجلًا إلى موضع الأسرى لتعرف من جُمعوا هناك.

قالت ميرافا:

«التحصين لنا. المواقع الباقية فقدت طريق الإمداد، وقد وصلنا استسلام اثنين منها. سنحتاج أيامًا حتى يعرف الناس أن بيوتهم ليست خلف جبهة بعد الآن.»

وضعت يدها على طرف التجويف، بعيدًا عن الأثر.

«أما هذا، فقرار نقله يصدر هنا.»

شعر نائل بسدرا تشد كفيها خلف ظهرها. كانت قد غسلت الدم، لكن التراب لم يخرج من خطوط أصابعها.

قالت الملكة لها:

«أخبرني سايرن أنك تعرفين ما يمكن للحجر أن يحتمله. وسمعت من الرجال كيف خرجوا.»

أجابت سدرا:

«كانوا سيُدفنون إن عبرنا فوقهم.»

«وأريد ألا يُدفن آخرون. هنا، أو حيث ستذهبون.»

التفتت ميرافا إلى إيلدار.

«أسمع منك قبل أن أقرر.»

طال صمته حتى نظر نائل إلى أوران. كان معلمه مستندًا إلى الجدار، وعيناه على الحافظ.

قال إيلدار لسدرا:

«منعتك من الاقتراب حين رأيتك أول مرة.»

لم تجبه.

«كنت تسمعين ما تحت الحجر، وظننت أن ذلك سيدفعك إلى طلب ما لا تعرفينه.»

«واليوم؟»

نظر إلى كفها الملفوفة بقطعة قماش.

«اليوم توقفتِ حين لم تعرفي.»

رفع الأثر من تجويفه. فعل ذلك بيدين ثابتتين، ثم وضعه على قماش مطوي أمامه. لم يمده إليها بعد.

«الذي سمعته في الممر لا يصير واضحًا كله لأنك حملتِ هذا. وقد تقوين على تحريك ما لا تقوين على ردّه.»

قالت سدرا:

«أحتاج أن أعرف كيف أوقفه.»

للمرة الأولى منذ رآه نائل عند الحافة، أفسح إيلدار موضعًا بجانبه.

قالت ميرافا:

«آذن بخروجه معكم، إن اختارت سدرا حمله. لا أبيع لكم قاسران بما فعلتم اليوم، ولا أجعل إنقاذ أهلها ثمنًا لطريقكم. لكنني رأيت الطريق الذي أريد لهذه القوة أن تسلكه.»

سأل نائل سدرا:

«ستأتين؟»

نظرت إلى يدها، ثم إلى الباب.

«عندي من أخبرهم أولًا. والرجل الذي أخرجناه يحتاج إلى من ينقله إلى أهله.»

قال سايرن:

«ينقله رجالنا.»

«أعرف. أريد أن أراه يصل إلى العربة.»

رفعت عينيها إلى نائل.

«بعدها آتي.»

أزاح أوران كتفه عن الجدار، فتنحى نائل معه ليترك لسدرا موضعًا قرب الحافظ. أحس بالختم يزداد دفئًا تحت ثوبه، لكنه لم يخرجه. كان إيلدار ينظر إلى يد سدرا وهي تمتد نحو الأثر.

لامست السطح الداكن بأطراف أصابعها. توقفت، ونظرت إلى الأرض تحت قدميها، ثم أعادت بصرها إليه.

«أحس بما تحت الدرجة.»

«اتركيه في موضعه»، قال إيلدار. «احملي الأثر أولًا.»

رفعت سدرا الأثر. شدّت أصابعها عليه، ثم فتحتها قليلًا حين لمس إيلدار رسغها.

«لا تقبضي بكل قوتك.»

من خلف الباب تحركت حصاة صغيرة على الدرجة، وسمع نائل خشخشتها. التفتت سدرا إليها بسرعة، فتوقفت. وجهت نظرها إلى إيلدار.

«لم أقصد.»

«لهذا نتعلم قبل أن نحتاج.»

جلسا عند أدنى الدرجات. أمرها أن تضع القطعة على راحة مفتوحة، وأن تفرق بين ما يصلها من الحجر وما تدفعه هي إليه. ظل نائل إلى جانب أوران، وترك لها المسافة التي تركها له معلمه عند البوصلة.

في الخارج دُق جرس صغير من ناحية الساحة. لم يحمل الصوت فخامة احتفال. كان ينادي الرجال ليأخذوا نصيبهم من الطعام قبل أن يبرد.

⁂

حين خرجوا، كانت آخر العربات تدخل من البوابة التي أصلحتها سدرا. سار نائل إلى جانبها حتى وجد العامل مسجى على فراش من القش، وقد ثُبتت ساقه بين لوحين. توقفا معه، ووعدته أن تأتيه في الصباح قبل أن يتحركوا. لم تقل له إلى أين سيذهبون بعد ذلك. ظلت يده على يدها حتى طلب حامل المصباح أن يفسحا موضعًا للمصاب التالي.

وصل رفال مع عربة الضمادات. نزل منها ببطء، وأمسك طرفها حتى استقرت قدماه. كان في وجهه لون لم يره نائل فيه منذ السفينة، لكن أصابعه لم تطاوعه حين حاول حل ربطة كيس.

اقترب نائل ليساعده، فقال رفال:

«أمسك الطرف الآخر فقط.»

أمسكه. شد رفال العقدة بسِنّ أداة صغيرة، وانفتح الكيس. حملا اللفافات إلى الداخل، وعند عودتهما وجدا نيرفا تحت السقيفة القريبة من السور.

كانت وحدها. على المقعد أمامها وعاء ماء وكوب لم ترفعه. وضعت الرباط الذي جاءها به الرسول إلى جانب الوعاء، ثم أشارت إلى رفال.

«تعال.»

توقف نائل عند العمود. هم أن يتراجع، لكنها قالت:

«أنت أيضًا.»

جلس رفال على طرف المقعد. ظل ينظر إلى يديه حتى سألته نيرفا:

«هل تذكر ما فعلته قبل الجسر؟»

رفع رأسه.

«أذكر.»

«وأنا أذكر ما حدث بعده. أحتاج أن أعرف أيّهما ستختار حين تستطيع الرحيل مرة أخرى.»

مرر رفال إبهامه على الخط المحفور في كفه. لم يجب بسرعة، ولم يستعن بنائل.

«لا أستطيع أن أقول إنني لن أخاف.»

«لم أسألك ذلك.»

«كنت أحاول أن أخرج وحدي. ثم وجدت أن كل ما فعلته أبقى غيري في الموضع الذي هربت منه.»

نظر إلى ساقها الممدودة.

«لا يصلح ما فعلته على الجسر كل ما قبله. أعرف.»

تحرك نائل قليلًا، فصدر صوت الخشب تحت حذائه. كانت تلك أول مرة يسمع رفال يتكلم عن هروبه من غير أن يسبقه غضب أحد.

سألته نيرفا:

«إن خالفتك؟ إن أمرتك بما لا تراه صوابًا؟»

«أقول لك. ولا أختفي قبل أن تسمعيني.»

نظرت إليه مدة. من الساحة جاء رجل ينادي على حامل مصباح، ثم خفت الصوت حين انغلق الباب الداخلي. أخرجت نيرفا الحلقة من غلاف صغير عند حزامها.

عرف نائل لمعانها قبل أن تتكشف كلها. تذكر حركة السفينة تحت قدميه حين أعادها إليها، وبرودة المعدن في يده. لم يمد يده هذه المرة.

قالت نيرفا:

«ما تحمله من رهفان لا يصير ملكك لأنك قدرت عليه. وستقول من أين جاء حين تُسأل.»

«سأقول.»

«وإن وجدت أنك لا تستطيع حمله، تخبرنا قبل أن تختار عنّا.»

فتح رفال كفه. أخذت نيرفا يده ووضعت الحلقة فيها بنفسها. انتظرت حتى انثنت أصابعه حولها، ثم تركته يحملها.



لم يتغير شيء في الساحة. لم يرتفع ضوء، ولم تتوقف الأصوات خلف السور. أغلق رفال أصابعه ثم بسطها، ونظر إلى نيرفا.

«أفهم.»

مدت إليه الكوب الفارغ.

«إذن ابدأ بهذا. يدي لا تصل إلى القربة من هنا.»

أخذه. نهض دون أن يتكئ على نائل، ومشى إلى طرف السقيفة حيث عُلقت القربة. راقبته نيرفا حتى رفعها، ثم حولت وجهها إلى الساحة.

كان أوران يجلس قريبًا من الباب، وقد أمال رأسه إلى الجدار. على ركبتيه البوصلة المغلقة. ظنه نائل نائمًا، لكنه رفع عينيه حين اقترب.

«كيف يدك؟»

فتح نائل كفه. كان الاحمرار قد خف، وظل موضع واحد يؤلمه حين يقبض.

أشار أوران إلى المقعد بجانبه.

جلس. لم يسأله معلمه عن عدد الرجال الذين عبروا الطريق، ولا عن الأثر الذي خرج من الحجرة. تناول يده وقلبها قليلًا في الضوء، ثم تركها على ركبته.

من الجهة الأخرى للساحة خرجت سدرا مع إيلدار. توقف الحافظ ليعيد تثبيت القماش حول الأثر، ثم أشار إلى حجر عند الحائط. جثت بقربه، ووضعت يدها عليه. انتظر معها، ولم يبعدها.

عاد رفال بالكوب. ناوله إلى نيرفا من غير أن يسكب منه، ثم جلس على طرف المقعد نفسه. رأى نائل الحلقة في كفه المستندة إلى الخشب، فرفع بصره إلى نيرفا. كانت تشرب، وعيناها تتبعان عربة الجرحى الخارجة من البوابة المفتوحة.

⁂

كان اسم أخيها في أعلى الورقة التي جاء بها الرجل، مع أنه مات قبل أن تُكتب.

أعادت نيرفا قراءة السطر. أمر قديم بحراسة طريق الإمداد، جُدد تحت اسم فاريك بعد الانقلاب، وحُمل إلى جنود لم يعرفوا أن الملك الذي يأمرهم لم يعد يملك أن يفتح باب غرفته. وضعت الورقة إلى جانب أسماء الرجال الذين خرجوا من التحصين، وأشارت إلى المقعد.

جلس الجندي بحذر. كان الرباط الذي أخذته من رفيقه مربوطًا الآن على كتفه، مغسولًا، لكن الماء لم يذهب بكل ما فيه. نظر إلى الأسماء ولم يمد يده.

«يقولون إن من ألقى سلاحه لا يعود إلى وحدته.»

«من يقول؟»

«الرجال.»

أعطته القائمة.

«من يستطيع السير يلحق بالمصابين حتى يصلوا إلى الدار. ومن يحتاج إلى علاج يتلقاه. لن أرسل أحدًا إلى إيردان.»

توقف إصبعه عند اسم قرب الأسفل.

«هذا بقي في الموقع الجنوبي.»

شطبت العلامة المقابلة للاسم. كانت قد وضعته بين الخارجين اعتمادًا على عدد، لا على وجه رأته. سألته عن رجل آخر، ثم عن موضع آخر شاهد فيه صاحبه. أجاب، وكلما أجاب صار ظهره أقل انحناءً.

حين خرج، حمل معه أسماءً محددة بدل السؤال الذي جاء به.

انتظرت نيرفا أن يبتعد قبل أن تمد ساقها. شد الجرح عند الركبة حين رفعتها إلى الدرجة الخشبية، فاستندت بيدها إلى الطاولة. من النافذة رأت عربة تمر بين صفين من الأحجار المتناثرة. كان رائف يسير قربها حاملًا جرابه، ونائل يساعد الرجل عند العجلة الخلفية.

أوقفته سدرا بإشارة. ترك العجلة، وانحنى معها إلى حجر عالق تحتها. راقبته نيرفا يضع يده، ثم يرفعها منتظرًا كلامها. تذكرت كيف خرج من الممر

الأسود تحت التحصين، وكيف مرت خلفه قوة كاملة من الموضع الذي لم يكن يصلح قبل يوم لمرور رجل.

حامل الخريطة.

جاءتها الكلمتان بصوت سمعته قبل أن ينقطع. تحركت يدها فوق الورقة دون أن تكتب. لماذا كان العجوز يترك له القرار حين يضيق الطريق؟ ولماذا ينظر إليه الآخرون قبل أن يجيبوا عن سؤال يخصهم جميعًا؟

دُق الباب، فرفعت رأسها. دخل سايرن ومعه نسخة من أوامر الحراسة على المعبر.

ردت ساقها إلى الأرض قبل أن يراها ممدودة، لكنه رأى يدها تقبض على طرف الطاولة. وضع الأوراق قريبًا منها ولم يطلب أن تنهض.

«الموقع الجنوبي يفاوض على التسليم. أريد رجلًا يعرف ضباطه.»

أشارت إلى اسم شطبته قبل قليل.

«هذا في الداخل. إذا استطعت إيصال اسمي إليه، فلن تحتاج إلى أن تعد كل من هناك وعدًا مختلفًا.»

قرأ سايرن الاسم، ثم نظر إلى الورقة الأخرى. كانت تحمل ختم فاريك.

«متى وصلهم هذا؟»

قالت له ما عرفته من الجندي. قلب الورقة ليرى أثر الختم في ظهرها، وعاد بها إلى الضوء.

«الأوامر باسم الميت تصل أسرع من التحذير إلى الحي.»

لم تنظر إليه في البداية. أمسكت القلم لتضيف اسم الرجل الذي ينبغي أن يحمل رسالتها، ثم توقفت.

«أي تحذير؟»

رفع سايرن بصره. بدا أنه يزن ما قاله بعد أن خرج منه.

«أرسلت إلى فاريك قبل الانقلاب.»

وضعت القلم.

«من أين؟»

«تيرافا. حمل دارِن الرسالة.»

تحركت الورقة تحت أصابعها. لم تعد ترى أمر الحراسة. رأت زاوية مكتب أخيها، وحافة رسالة لم يُفتح طيها على نحو كامل، والختم الذي عرفته يومها قبل أن تسأله عمّا فيه.

قالت:

«لم يكن اسمك عليها.»

«طلبت ألا يُذكر.»

انتظر، ثم سألها:

«رأيتِها؟»

لم تستطع أن تجيب وهي تنظر إليه. أخذت الورقة من يده وأعادتها إلى موضعها، فسقطت فوق القائمة وغطت الاسم الذي أرادت إنقاذ صاحبه.

«رأيتها.»

سمعت صوتها قديمًا، واضحًا على نحو أزعجها: لا أحتاج إلى دارِن كي أخبرك. كانت تظن أنها تعرف ما يحتاج أخوها إلى معرفته، وأن الرسالة القادمة من تيرافا جزء من حسابات أناس خسروا حربًا ويريدون تعطيل من ربحها.

سألته:

«ماذا كنت تعرف؟»

ذكر ما حمله التحذير من خطر على فاريك واستقلال قراره. حين سألته عن توقيت حركة الرجال داخل القصر، هز رأسه.

«ذلك عرفته بعد أن وقع. لا أعرف متى قرأها، ولا ماذا قرر بعدها.»

أحست بحاجة إلى أن تخبره عن المكتب كله؛ أين وقف أخوها، وأي باب كان مفتوحًا، وكيف أجابت قبل أن تقرأ. لكنها لم تجد جملة تجمع هذه الأشياء دون أن تجعل منه قاضيًا لم تطلب حكمه.

«أخّرها»، قالت. «وأنا لم أطلب منه أن يعيد النظر.»

لم يقل سايرن إن الرسالة كانت ستنقذه حتمًا. ظل واقفًا عند الطرف الآخر للطاولة، ثم سحب ورقة الأسماء من تحت أمر الحراسة ووضعها أمامها.

«هذا الرجل في الموقع الجنوبي. ما الذي يجعله يصدق أن رسالتك منك؟»

نظرت إلى الاسم. كان صاحبه قد حمل راية تدريب قديمة قبل أن يصير جنديًا. سألت سايرن إن كان الرسول سيعود، فأجاب أنه سيعطيه مهلة يتفقان عليها، ولن يبدأ الهجوم ما دام داخل الموقع ولم يتجاوزها.

أملت عليه علامة يعرفها الرجل. كتبها، ثم أعاد الورقة إليها لتراجعها.

هذه المرة قرأت كل سطر.

عند الباب استوقفته.

«سايرن.»

التفت.

«إذا عاد الرسول بخبر لا تفهمه، تعال إليّ قبل أن تصدر أمرك.»

«سآتي.»

أغلق الباب خلفه، ولم تعد نيرفا إلى النافذة. رفعت أمر أخيها من فوق القائمة، وطوته وحده. كان هناك رجال أحياء ينتظرون جوابًا.

⁂

رأى نائل الرجل الذي أنقذوه يُرفع إلى العربة من غير أن يحاول كتمان تأوهه. أمسكت سدرا طرف اللوح المثبت إلى ساقه حتى استقرت، ثم عدلت القماش تحت كعبه العاري. أعطاها شيئًا صغيرًا ملفوفًا في خرقة.

فتحته. إزميل قصير، صدئ من جهة واحدة.

«لا أحتاجه في الطريق»، قالت.

«ولا أحتاجه أنا في الفراش.»

ردت الخرقة فوقه، وأدخلته في جراب أدواتها. كانت قد جاءت إلى العربة ثلاث مرات منذ الصباح؛ في كل مرة تجد أمرًا صغيرًا لم يُنجز. الماء، ورباط الفراش، واسم البيت الذي سيُنقل إليه الرجل حين يبلغ أهله.

صعد حامل المصباح إلى جانب السائق، فتحركت أخيرًا بعيدًا عن العجلة.

وقف إيلدار خلفها. لم يكن يحمل شيئًا حين جاء، لكن نائل رآه يرفع كفه، فأخرجت سدرا أثر الأرض ووضعته عليها. فحص القماش الذي يلفه، ثم أعاده إليها.

«حين تشعرين بالحجر كله دفعة واحدة، لا تتبعيه كله.»

«أختار موضعًا أعرفه.»

«وإذا لم تعرفي؟»

أغلقت الجراب.

«أتوقف.»

أشار إلى كتفها. كان مشدودًا من طول العمل، فأنزلته قليلًا، ثم تنفست. انتظر حتى فعلت ذلك قبل أن يبتعد. لم يعطها وعدًا بأن الأثر سيحميها.

جاء رائف من دار الملكة، وأخبرهم أن ميرافا تنتظرهم. كان أوران عند بابها، يحمل الحزمة المعدنية التي اعتاد نائل أن يراها ملفوفة. هذه المرة ثبتها إلى حزامه بدل أن يتركها بين الأمتعة.

سأله نائل إن كانوا سيرحلون في ذلك اليوم.

«نسمع أولًا.»

في الداخل لم تُمد خريطة المملكة كلها. وضع قرهان رسم الطريق إلى إيفارا فوق الطاولة، وثبت عند موضعين قطعتي خشب. حضر سايرن ونيرفا، ووقف قائد لا يعرفه نائل قرب الباب. كانت إيسا قد سبقتهم، وجلست حيث تستطيع إسناد ذراعها.

قالت ميرافا:

«يمكن أن يرافقكم رجال حتى الحدود. معهم خيل تحمل المتاع ومن يتعب عن السير.»

نظر نائل إلى الرسم. لم يكن قد طلب خيلًا، وفكر فورًا في ساق نيرفا وذراع إيسا. سأل عن عدد الرجال، فأجابه القائد، ثم بدأ يشرح مواضع التوقف.

الطريق الذي اختاره يمر بموقعين لقاسران، ويتجنب معبرًا أقصر لا تصل إليه الدوريات. بدا ذلك معقولًا. وافق نائل على الأول، وسأل عن الثاني.

قال القائد:

«نتوقف حتى تصلني إفادة الحراسة من الجهة الأخرى. بعدها أحدد إن كنا نتقدم أو نعود.»

«نعود إلى أين؟»

«إلى الملكة.»

نظر نائل إلى ميرافا.

قالت:

«أخرجت قوة قاسران معكم. لا أستطيع أن أرسل رجالًا لحمايتها وأمنع قائدهم من إعادتها إذا وجد أن الطريق سيأخذها إلى يد عدونا.»

تكلمت سدرا قبل أن يجيب نائل.

«وماذا لو رأى أن حملها خارج قاسران خطر في نفسه؟»

أجاب القائد:

«لا أجادل قرار الملكة. لكن الطريق والموعد وموضع الأثر أثناء الخطر تقع في مسؤوليتي.»

أدرك نائل أن الموافقة على المرافقة لن تنتهي عند اختيار طريق أطول. إن وجدوا في إيفارا ما يستدعي أن يبقوا، أو ما يفرض أن يغادروا في الليل، فسيكون عليهم أولًا إقناع رجل يحمل أمرًا بحماية ما ينبغي لهم استعماله.

سأل:

«هل يمكن أن ترافقونا، ونقرر نحن إن كنا نتوقف أو نتابع؟»

«وأي أمر أنفذ إن طلبتَ التقدم ورأيتُ أنني سأفقد رجالي والأثر؟»

التفت نائل إلى أوران. لم يعطه جوابًا بعينيه. أشار إلى الرسم، فاقترب منه.

قرأ رائف أسماء المحطات، وسأل قرهان عن الماء بين موضعين. شرحت نيرفا الطريق الذي تعرفه إلى الحد الشرقي، وحددت آخر مكان تستطيع قوات قاسران حمايته دون أن تستنزف رجال التحرير. ظل أوران يسأل عن المسافات وحال الأرض حتى اكتملت أمامهم صورة الرحلة الصغيرة التي سيخرجون إليها.

قال نائل عندئذ:

«أقبل دليلكم حتى آخر نقطة حراسة، والمؤن، والخبر الذي يصل عن الطريق. لكن لا أستطيع أن أعطي أحدًا حق إعادتنا كلما اختلفنا.»

ضمت ميرافا أصابعها فوق الطاولة.

«أعرف أنكم لا تطلبون الأثر لتحتفظوا به. هذا لا يجعل فقده أقل خطرًا على بلادي.»

أجاب أوران:

«ولا يجعلنا نستخف بالخطر. نطلب أن نتحمل قرارنا، لا أن نكلف قائدك بعصيان أمره.»

سألته الملكة إن كان يرى الجماعة قادرة على العبور، فأجابها بأن الطريق صالح بحسب ما وصلهم، وأنهم سيغيرونه أو يرجعون إن ظهر ما يخالف ذلك.

طال الصمت قليلًا. ثم أخذت ميرافا إحدى قطعتي الخشب من الرسم، ونقلتها إلى آخر موضع حراسة.

«إلى هنا يرافقكم الدليل. ما بعده تختارونه أنتم.»

بدا لنائل أن القرار صار أثقل حين لم يعارضه أحد بعد ذلك. طلب من رائف نسخة من الرسم، ومن قرهان اسم الموضع الذي يستطيعون إرسال خبر منه. وسأل إيسا إن كانت تحتاج إلى يوم آخر.

«أحتاج ألا تحملوني متاعًا في هذه اليد. أما السير فأستطيع.»

قالت نيرفا إنها ستمتطي إحدى الدابتين المخصصتين للأمتعة في المقاطع الصعبة، وإنها ستترك لرجالها أمرًا واضحًا بمن يرجعون إليه خلال غيابها.

خرجوا وقد تحدد الرحيل لصباح اليوم التالي.

في الساحة توقف سايرن مع أوران. ابتعد نائل ليعيد إلى قرهان رباطًا سقط من الرسم، لكنه سمع القائد يقول:

«لو لم تكن المواقع الجنوبية تنتظر، لسرت معكم بنفسي.»

أجاب أوران:

«أبقِ الطريق إلى الذين فيها مفتوحًا.»

عند المساء جاءت إيسا بالرجل الذي يتولى خبر المرسى. وصف لهم الحبال، وموضع الماء في الخليج، وأثر المد على الصخرة المشقوقة. سألته سؤالًا لا يفهمه غير من رأى عقدتها. أجاب، فاطمأنت إلى أنه بلغ السفينة، لا إلى أنه نقل كلام رجل آخر.

قالت له:

«لا يحركها أحد إذا تأخرنا. أرسلوا إلى سايرن.»

رد أنه يعرف. ومضى قبل أن يظلم المسلك.

ظل نائل يرتب الأمتعة بعد أن انتهى الآخرون. كان يحاول أن يوزع الحمل بحيث يستطيع كل واحد الوصول إلى ما يحتاجه من غير أن يفتح جرابه كله. وحين رفع رأسه، وجد أوران يراقب اليد التي يدفع بها البوصلة نحو موضع أعلى في الحقيبة.

«هذه عندي الليلة»، قال العجوز.

ناولها إليه. أطبق أوران الغطاء، وترك لنائل ترتيب ما تبقى.

⁂

لم تنتظر أزال رسولًا من أبيها.

انتظرت الرجل الذي أرسلته إلى الطريق الشرقي، وجعلته يصف من خرج من دار الملكة قبل أن تسأله عمّن سيخرج من قاسران. قال إن المؤن رُبطت على دابتين، وإن القائد المكلف بالمرافقة أعاد رجاله إلى مواقعهم. وفي الصباح سيصحب الغرباء دليل حتى آخر نقطة حراسة، ثم يرجع.

أخرجت الأمر الذي قرأته تحت الشجرة قبل أيام. فتحت الطية الداخلية هذه المرة. كان فيه تكليف يبدأ حين ينتهي الأول: تراقب ما داموا في حماية الجيش، وتقبض عليهم إذا حملوا قوة قاسران وخرجوا من حمايته قبل بلوغ إيفارا.

مر إصبعها على الشرطين. القوة معهم. والرجال لن يخرجوا.

سأل معاونها:

«نرسل إلى جروان؟»

«بعد التنفيذ. الأمر عندنا.»

مدت الورقة إليه ليقرأ موضع التكليف. لم يكن اسم نائل وحده بين المطلوبين؛ الآثار أيضًا، ومن يحملها ما أمكن. أما من يمنع الأسر فالأمر لا يوجب إبقاءه حيًا.

قال المعاون إن من الأفضل مهاجمتهم ليلًا قبل آخر نقطة حراسة.

«حينها يدخل رجال قاسران المعركة. أريدهم خارجها.»

كانت تعرف أن النصر الذي تحقق في الغرب سيجعل الطرق أكثر ازدحامًا، وأن انتظار يوم آخر قد يضع خلف نائل عشرات من العائدين إلى بيوتهم. اختارت موضع المخاضة القديمة، حيث ينقسم الطريق حول كتف صخري، ويضيق المسلك الراجع بين جدار ترابي والماء. يستطيع راكب أن يراه مكانًا صالحًا لملء القرب، ولا يرى الرجال فوقه ما لم يصعد إلى الحافة.

أعطت الرماة أمرًا ألا يصيبوا الفتى الذي يحمل العصا. عينت رجالًا لقطع العودة، وآخرين تحت أشجار الجانب الأبعد حتى لا يتجه الهاربون إلى الطريق الواصل بإيفارا. وأرسلت اثنين لاستطلاع المجرى السفلي قبل الفجر.

عادا بخبر حاجز قديم للماء، ومسلك ضيق فوقه لا يصلح للخيل.

قالت:

«إذن لا نحتاج الخيل هناك. ضعوا رجلين عند بدايته.»

قبل أن يركب معاونها، استوقفته.

«العجوز أول من تعزله عن الفتى. لا تنتظر حتى يمد يده.»

⁂

عند آخر نقطة حراسة، أعاد الدليل إلى نائل القربة التي ملأها من الجرة المعلقة تحت السقيفة. كان الماء أبرد مما في قربتهم، وله طعم حجر بقي في الظل. شرب نائل قليلًا، ثم مررها إلى رفال.

تحدث الدليل مع الحارسين، وسألهما عن آخر من مر. عربة فارغة في أول الصباح، وامرأتان إلى الحقول، ورجل يقود بغلًا يحمل أكياسًا. لم يسمع أحد اشتباكًا على الطريق.

قال أوران:

«والمخاضة؟»

«الماء دون الركبة في وسطها. اعبروا من أثر العجلات، لا من جهة القصب.»

مد رائف الرسم، فوضع الرجل ظفره عند الانعطاف التالي.

«ستسمعونه قبل أن تروه. بعده يصعد الطريق حتى دار الطريق القديمة. إن وجدتم بابها مغلقًا، فهناك آبار خلفها.»

سألت نيرفا عن المسلك السفلي، فقال إن العمال كانوا يعبرون منه إلى حاجز الماء، لكنه لم يسلكه منذ توقفوا عن إصلاحه. لم يضفه رائف إلى الطريق الذي اختاروه؛ وضع خطًا قصيرًا في الهامش.

حين رجع الدليل، نظر نائل خلفه حتى اختفى عند المنعطف. كانت تلك أول مسافة يقطعونها خارج ما اتفقوا عليه مع ميرافا. لم يتغير الهواء، ولا هيئة الأرض. تقدمت إحدى الدابتين تشم العشب، فضرب رفال ركبته بخفة ليبعدها عن الحافة.

سارت سدرا قرب الجدار الترابي. منذ خرجت من قاسران، كانت تمد يدها إليه أحيانًا، ثم تعيدها. في المرة الثالثة قالت إنها تشعر بقطع حجر عميقة لا تراها، وإن الأرض قرب الماء مختلفة عن الطريق الذي فوقها.

سألها نائل إن كانت تعرف كيف.

«أعرف أنني لا أريد دفعها حتى أعرف.»

سمع أوران ذلك من الخلف، ولم يتدخل. كان قد اختار أن يمشي وراء الدابة الثانية، بحيث يرى المجموعة كلها عند المنعطفات. لم يحمل نائل الحزمة المعدنية عنه؛ عرض عليه ذلك حين شد حزامه، فأجابه أنها لا تعيقه.

اقترب رائف ليعرض الرسم. اختار نائل الموضع الذي سيتوقفون فيه لملء القرب، ثم سأل عن المسافة التالية. أجابه رائف بما قاله الدليل، وأضاف أنه لا يعرف حال الطريق بعد دار الطريق القديمة.

«نسأل هناك قبل أن نكمل.»

نظر نائل إلى أوران، ينتظر منه أن يصحح شيئًا. لكنه كان يسوي رباط الحزمة عند خصره. لم يرفع رأسه إلا حين تعثرت الدابة بحجر صغير.

نزلت نيرفا قبل أن يبلغوا الماء. أخذت اللجام، ومشت خطوات كي تختبر ساقها. لم تقل إنها تؤلمها، لكن نائل رأى أنها تتجنب مد الركبة إلى آخرها. خفف سرعته حتى صارت إلى جانبه.

«أستطيع السير»، قالت.

«أعرف. أريد أن أعرف إن كنا نريح الدابتين هنا أو بعد العبور.»

نظرت إلى انحدار الطريق.

«بعده. لا نجلس حيث تضطر الدواب إلى رفع الحمل من الماء.»

سمعوا الجدول قبل أن يروا سطحه. لم يكن عريضًا في الأسفل، لكنه تفرق عند المخاضة على حصى مسطح، ثم تجمع وراء لسان من القصب. على الحافة المقابلة امتدت جذور شجرة مكشوفة، وتحتها ظلال تستطيع جماعة صغيرة أن تستريح فيها.

نزلت إيسا إلى حجر جاف عند الطرف. غمست أصابعها، ثم نقلتها إلى موضع أبعد.

«الوسط أسرع مما يبدو. لا تشدوا القرب بالحبل من هنا.»

أشار رفال إلى بقعة ساكنة.

«هناك؟»

«هناك.»

تحرك نحوها، وتبعه نائل بقربتين. كان الماء صافيًا فوق الحصى، مع خيط من طين رقيق جاء من أعلى. عند الجهة الأخرى رأى آثار حوافر تصعد من الجدول إلى التراب، حديثة بما يكفي لأن الماء لم يجف في بعض تجاويفها.

توقف.

«مرت خيل كثيرة.»

اقترب أوران من كتفه. نظر إلى الأثر، ثم إلى الضفة التي لم يصلوها بعد. لم يسأله كيف عرف، ولم ينزل ليلمس الطين.

رفع يده إلى رفال.

«اترك القرب. نعود إلى المنعطف.»

التفت نائل فرأى نيرفا قد أخذت اللجامين معًا، وصارت تجر الدابتين إلى جهة العودة. كانت قد رأت شيئًا آخر فوق الجدار. أخرجت سيفها وهي تتحرك، لا بعد أن وقفت.

جاء السهم الأول إلى التراب أمام الدابة. نفرت، وارتطم حملها بكتف رفال. أمسكه نائل قبل أن يسقط في الماء، ثم دفعه أوران خلف كتف الصخر.

لم يكن السهم موجّهًا إلى جسد. أغلق عليهم المسافة التي احتاجوها للرجوع. ظهر فوق الطريق رجال يحملون القسي، وعلى الجانب الآخر خرج رجلان من بين الأشجار.

قالت نيرفا:

«لا تصعدوا.»

قطعت رباط أحد الجرابين كي تخفف حمل الدابة التي تدور حول نفسها. سقط الجراب، وتدحرجت منه قطعة خبز حتى ابتلت. رأى نائل الخبز يتوقف عند حجر، ولم يفهم لماذا بقيت عينه عليه بينما الرجال يتحركون فوقه.

ضرب أوران كتفه بكفه.

«إلى الجدار. انظر إليّ.»

رفع رأسه.

«مع سدرا ورائف. لا تذهبوا إلى الماء المفتوح.»

جاء صوت امرأة من الضفة المقابلة.

«لا نريد قتله.»

ظهرت أزال خلف صف من الرجال، ماشية، تمسك خوذة تحت ذراعها. سلمتها إلى رجل بجانبها ثم سحبت سيفها. لم تحمل راية تحتاج إلى أن تراها المجموعة كي تعرف من أرسلها.

عرفتها نيرفا.

«أزال.»

توقفت المرأة عند طرف الماء. نظرت إلى نيرفا، ثم إلى الحلقة التي أخفاها رفال داخل كفه.

«تسلمين الفتى والآثار، وينتهي الأمر هنا.»

أجابت نيرفا:

«إن كان ينتهي هكذا، لماذا رجالك خلفنا؟»

أشارت أزال بإصبعين، فتحرك رجل على الحافة العليا.

«كيلا نضيّع الصباح في الجري.»

شعر نائل بأوران يضعه وراء كتفه دون أن يلمسه. تغير موضع قدميه فقط، فصار الخط بين أزال ونائل يمر به.

قال العجوز:

«دعينا نخرج المصابين.»

«يخرجون حين يضعون ما يحملون.»

أدرك نائل أنها تعطي رجالها الوقت كي يثبتوا مواقعهم. نظر إلى رائف، فوجده قد رد الرسم إلى جرابه، ويتفحص المجرى تحت القصب. كان هناك طرف من جدار حجري، لا يظهر منه إلا صفان فوق الماء.

همس:

«الحاجز الذي قال عنه الدليل. الطريق فوقه يلتف تحت هذا الكتف.»

تبعت سدرا نظره. وضعت كفها على الأرض، ثم سحبتها سريعًا.

«الجانب القريب مفكك. إذا عبرنا كلنا انهار.»

«واحدًا واحدًا؟»

«ربما، إن ثبتنا طرفه.»

لم يعد أوران يراقب أزال وحدها. كان ينظر إلى رماة الحافة، وإلى الرجلين اللذين خرجا من الشجر، وإلى أصابع الرجل الواقف عند أضيق نقطة من العودة. طلب من نائل أن يترك إحدى الدابتين حيث تحجبهم عن الرامي الأعلى، ثم تقدم خطوة.

«أنت تريدينه حيًا.»

قالت أزال:

«لهذا ما زلنا نتحدث.»

أشار أوران برأسه إلى رجالها.

«أبعدي الأقواس عنه.»

أجابت بأمر لم يوجه إلى الرماة.

«خذوا العجوز.»

اندفع الرجل الذي كان عند العودة، ومعه آخر يحمل شبكة قصيرة مثقلة الأطراف. لم يركض أوران نحو أي منهما. تراجع حتى اضطر الأول إلى النزول عن الحجر قبل أن يضرب، ثم دفع طرف الحزمة المعدنية الملفوفة إلى رسغه. سمع نائل صرخة، وانفتح الرباط عن جزء من المعدن.

ألقى صاحب الشبكة ما في يده. جذبت نيرفا رفال من كتفه، وسقط الثقل فوق اللجام. صرخت الدابة وانطلقت إلى الماء، تجر الشبكة خلفها. حاول رجل من رجال أزال الإمساك بها، فاضطر إلى ترك رمحه.

«الآن!» قال أوران.

تحرك رائف إلى أسفل المجرى، ولحقت به إيسا. كان عليهما أن يعبرا مسافة مكشوفة لا تزيد على خطوات، لكنها بدت لنائل أطول من الطريق الذي قطعوه منذ الصباح. سقط سهم قرب كعب رائف. جثت إيسا عند الماء، ومدت يدها السليمة.

لم يرتفع الجدول كله. اندفعت طبقة منه فوق الحصى إلى حيث يثبت الرامي قدمه، فزلقت ساقه حين حاول النزول ليحسن الرؤية. تأخر السهم الثاني، واستطاع رائف بلوغ الجدار.

أمسك إيسا من جرابها وسحبها إلى ظله. كانت تحاول أن تنهض من غير أن تضع وزنها على الذراع المصابة.

ركع نائل قرب سدرا. دلته على حجر بارز عند طرف الحاجز.

«هذا يحمل ما فوقه. إن وصلناه بالكتلة هنا، يعبر أولنا.»

أخرج العصا، لكنه لم يجد الامتداد الذي وصفته. كان الماء يضرب قدميه، والأصوات فوقه تتداخل، والختم حارًا تحت ثوبه. كلما ظن أنه أمسك جهة سمع سلاحًا قريبًا، فرفع رأسه وقطع ما بدأه.

قالت سدرا:

«انظر إلى يدي. لا إلى كل ما يحدث.»

وضع أصابعه قرب أصابعها. وجد عندئذ اختلافًا صغيرًا بين الحجرين، فراغًا لا يحتاج إلى أن يُملأ كله. مد طرف العصا، وانتظر حتى استقرت الرعشة.

تحرك رجل نحو ظهره، فاستدار رفال ومد الحلقة. رأى نائل لبرهة خيطًا مشدودًا بين طرفي فجوة عند قدم المهاجم. تعثر الرجل، لكنه لم يسقط. قطع الخيط بسيفه حين لمح موضعه، واضطر رفال إلى الرجوع.

لم يكرر المحاولة على الأرض كلها. انتقل خلف الحجر وربط حبل الجراب إلى وتد قديم عند الجدار، ثم شد الاتصال بينهما حتى وقف الحبل في طريق الرجل الثاني. اصطدم به، فتلقته نيرفا بظهر سيفها ودفعته إلى الماء.

أخذ رفال نفسًا سريعًا وترك القوة. رأى نائل أصابعه ترتجف، لكنه ظل قادرًا على فتحها.

ثبت الطرف الأول من الحاجز. عبر رائف إلى مسافة أبعد، ثم توقف ورفع كفه.

كان الرجلان اللذان أرسلتهما أزال إلى المجرى ينتظران هناك.

رد أحدهما الرمح إلى صدره، ورفع الآخر قوسه. لم يكن لرائف موضع يختبئ فيه إلا خلف بقية الجدار المتداعي. انخفض إليه، وصاح بإيسا ألا تتبعه.

رأت أزال تعطلهم. تركت رجلين عند الضفة وصعدت نحو الكتف الصخري، تختصر المسافة إلى رأس الحاجز.

قالت نيرفا لأوران:

«الطريق السفلي مقطوع.»

كان قد أسقط الرجل الذي حاول أخذ نائل من جهة العودة، لكنه لم يطارد المنسحبين. الدم على كمه لم يكن واضح المصدر. نظر نحو رائف، ثم إلى الفتحة التي بدأت سدرا تعمل عليها.

سألها:

«ما وراء الكتف؟»

«مسلك القدم. إن بلغناه، لا تدخل الخيل.»

«وكم تحتاجين؟»

نظرت إلى نائل.

«وقتًا لا يعطوننا إياه.»

لف أوران القماش المتدلي عن الحزمة حول يده، وسحبه.

ظهر النصل كاملًا.

⁂

لم يكن النصل طويلًا كما توقع نائل. كان يستطيع أن يتخيل العجوز يحمله في طريق ضيق من غير أن يرتطم طرفه بالحجر، وأن يديره قريبًا من جسده حيث يحتاج غيره إلى التراجع. عند قاعدته علامة داكنة انكشفت حين أدار القبضة إلى الضوء، خطوط تتفرع حول مركز صغير.

احتفظ أوران بالقماش في كفه. نظر مرة إلى نائل، ثم إلى المخرج الذي حُرموا منه.

قال:

«لا تتركني أنتظر حين أفتحه.»

لم يعرف نائل ما الذي أراد قوله له قبل أن يتحرك. مد يده، فلم تمس إلا طرف ردائه.

وقف أوران خارج ظل الصخرة. رفع رأسه إلى رماة الحافة، وأخذ نفسًا بطيئًا. لم يصدر عن جسده ضوء. في البداية ظن نائل أن العجوز استقام فحسب، كما يستقيم رجل أنهكه حمل طويل بعد أن ينزله.

ثم تغير وجهه.

الخطوط الغائرة حول الفم خفت، وانكشف شد الفك الذي كانت تخفيه. لم يسقط شعره الأبيض، لكن لونه لم يعد اللون الذي عرفه عند النار وفي ضوء السفينة. انزاحت عن العينين تلك المسحة التي كان يفسرها بالتعب، فبدتا أصفى وأشد قربًا مما حولهما.

كانت اليد على النصل يد أوران؛ عرف موضع الأثر القديم قرب الإبهام. أما الرجل الذي وقف بها فلم يكن العجوز الذي نام إلى جانبه في الرحلة.

سمع نيرفا تأخذ نفسًا حادًا. لم تنطق بشيء.

على الطرف الآخر توقفت أزال. هبط بصرها إلى قاعدة النصل، ثم ارتفع إلى الوجه. قال لها الرجل الذي عند كتفها شيئًا لم يصل إلى نائل. لم تجبه. رفعت سيفها وأمرت الرماة أن يبقوا أعلى الحافة.

تحرك أوران قبل أن يكتمل الأمر.

لم يندفع في خط مستقيم نحوها. دخل بين الرجل الأقرب والصخرة بحيث حجب هذا الرجل عن الرامي لحظة إطلاقه. ارتطم السهم بالجدار، وتراجع المهاجم من الخوف قبل أن يضرب. استغل أوران تراجعه، نقل النصل من أسفل إلى أعلى، وخرج من جانبه قبل أن يسقط.

رأى نائل كتف الرجل الثاني يرتفع. ظن أن الضربة ستأتي من فوق، لكن أوران كان قد نقل قدمه إلى الخارج قبل أن يظهر السيف. مر الحد قرب ذراعه، ورد عليه بجرح قصير عند المفصل، ثم دفعه في طريق الثالث.

كان ينظر إلى ما لم ينظر إليه نائل: القدم التي تحمل الوزن، والكتف التي تسبق اليد، وضيق المسافة خلف رجل يمنعه من تغيير اتجاهه. حين أخطأ تقدير رجل يملك خنجرًا في يده الأخرى، أصابه الخنجر في ساعده. سال الدم إلى قبضته، فغيّرها وقاتل من مسافة أقرب.

نظر نائل إلى العصا في يده. كان معدناهما يلمعان تحت الشمس نفسها. نصل أوران يحتاج إلى رجل يعرف كيف يضعه بين الضربة وصاحبها؛ أما عصاه فلم تفعل شيئًا للحجر حتى وجد ما يمكن أن يصل إليه.

قالت سدرا:

«نائل.»

عاد إليها. كانت تمد يدها إلى الكتلة الثانية.

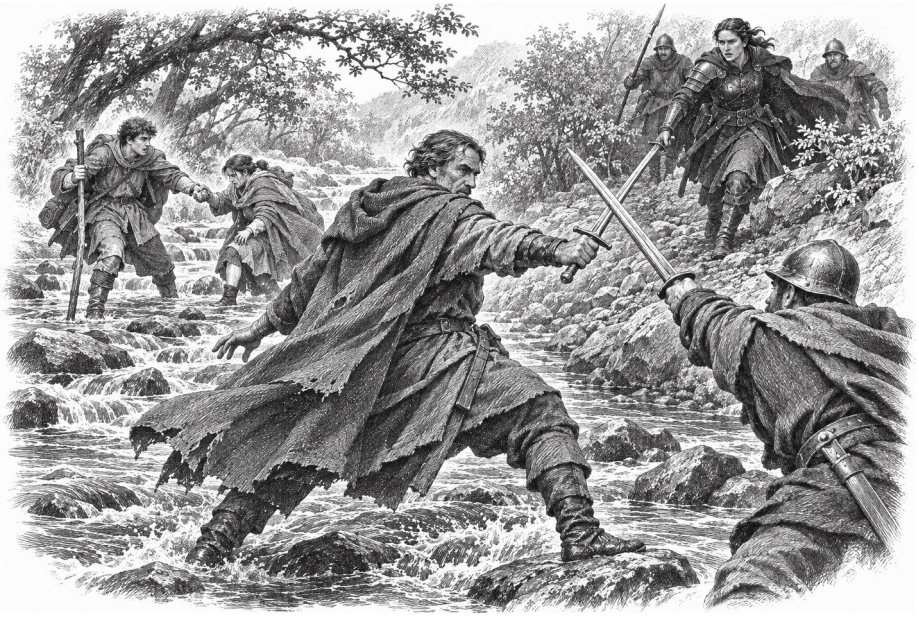

«الذي أمامك. لا الذي أمامه.»

وضع طرف العصا حيث أشارت. هذه المرة لم يحاول أن يرى نهاية الطريق. أمسك الجزء الذي انكشف، وشعر بالحجر يثبت تحت راحة سدرا. مرت رعشة في ساقيه، لكنه حافظ على موضعه.

فوقهما اصطدم الحديد مرتين. لم يرفع رأسه في الأولى. عند الثانية سمع نيرفا تنادي رفال، فعرف أنها ما زالت قريبة.

بلغ أوران رأس الحاجز، حيث ينتظر الرجلان رائف. ضرب الأول برمحه، فتلقاه أوران على جانب النصل وحرفه إلى الجدار. انكسر الخشب عند نقطة قديمة ضعيفة، أو هكذا خُيل لنائل من الصوت. دفع صاحبه إلى الماء، واستدار نحو الرامي قبل أن يفرغ من سحب سهمه.

أشار إلى رائف.

«خذها واعبر.»

زحف رائف من خلف الجدار، ثم عاد خطوة ليساعد إيسا. لم يتركها تختار بين ذراعها والماء. أخذ جرابها أولًا، ثم منحها ساعده السليم، وعبر بها إلى الموضع التالي.

صاحت أزال برجالها أن يغلقوا الحافة من أعلى. رأت أن عددهم صار يعيقهم في الممر، فأرسلت اثنين إلى الصعود بدل أن تدفع الجميع على النصل نفسه.

رآهما أوران، لكنه لم يصعد خلفهما. لو فعل، فتح لأزال طريقًا إلى نائل.

للمرة الأولى منذ انكشف وجهه، اضطر إلى أن يقاتل من موضع اختاره غيره.

تقدمت أزال حتى صارت قريبة بما يكفي لضربة واحدة. لم تلقِ سيفها على حده كما فعل رجالها. أبقت رأسه منخفضًا، واختبرت المسافة بخطوة ثم رجعت. كان هدفها أن تدفعه إلى الالتفات نحو الرجلين الصاعدين.

قالت شيئًا بصوت خافت. رأى نائل شفتيها تتحركان، لكنه لم يسمع إلا آخر الكلمة. كان الماء والحديد بينهما.

أجابها أوران بجملة أقصر. لم يرفع صوته ليصل إليهم.

ضربت.

تلقى الحد على الجزء القريب من قبضته، وحرفه إلى الجانب. لو تابعها، لبلغ كتفها. لكنه سمع الحجر يتحرك فوق نائل، فرجع نصف خطوة. جاء الرمح من الأعلى إلى الموضع الذي تركه، ثم انخفض نحو الشاب الراكع.

قطع أوران طريق الرمح بساعده والنصل معًا. اصطدم المعدن بالصخر قرب وجه نائل، وتناثر شظيّ صغير في شعره. سحبته سدرا من الرداء، فترك الاتصال لحظة.

اهتز الحاجز تحت قدم إيسا.

«أمسكه!» صاح رائف.

عاد نائل إلى موضعه قبل أن يعرف إن كان يستطيع. وجد طرف الخط ينفلت منه، فمد العصا أبعد مما ينبغي. ألم حاد صعد من رسغه إلى كتفه. توقف قبل أن يدفعه، وقصّر المسافة كما علمه أوران. الحجر القريب، ثم الذي يليه.

ثبتت قدم إيسا على الجهة الأخرى.

سمع أوران يقول له:

«جيد. اتركه حين تعبر سدرا.»

كان صوته الصوت الذي يعرفه، خارجًا من وجه لم يألفه.

تحركت نيرفا إلى قاعدة الحافة. لم تستطع صعودها بسرعة الرجلين، لكنها استطاعت أن تمنع أحدهما من النزول إلى ظهورهم. صدت ضربته ودفعت ركبته بقدمها السليمة، فسقط إلى جانبها. حين سحبت سيفها، خانتها ساقها المصابة، واضطرت إلى الاتكاء على الجدار.

جاء رفال إليها. لم يحاول حملها. مد حبلًا من طرف الحاجز، وثبته بقوته لحظة كي تستند إليه وهي تنهض. صر أسنانه حتى وقفت، ثم أرخاه قبل أن تنغلق أصابعه على الحلقة من جديد.

«اذهبي»، قال.

لم تذهب قبل أن صار هو أمامها.

بقي نائل وسدرا وأوران عند الجهة القريبة. كان رائف قد بلغ طرف المسلك وبدأ يبعد الحجارة الصغيرة عن موضع القدم. ورأت سدرا تحت الكتف صفيحة مائلة يمكنها أن تستند إلى الكتلة التي ثبتها نائل، فطلبت منه أن يترك العصا مكانها لحظة.

أخرجت الأثر، ووضعته بين كفها والحجر. لم ترتفع الصفيحة. تحركت قليلًا، ثم توقفت كأنها اصطدمت بشيء لا تراه.

«أكثر؟» سألها.

«لا. هناك حمل فوقها.»

أعادت الأثر إلى القماش، ودفعت قضيبها تحت الحافة. كان عليها أن تغير زاوية الحجر بيدها قبل أن تستعين بالقوة. ساعدها نائل بكتفه، فمالت الصفيحة حتى استقرت على طرف واحد.

من فوقهم انحدرت حصاة، ثم ثانية.

رفع أوران رأسه. لم ير نائل ما رآه، لكنه سمعه يأمرهما بالعبور فورًا.

عبرت سدرا أولًا، لتثبت الطرف الآخر. تبعها نائل حتى منتصف المسافة. نظر إلى الماء تحت قدمه، ثم إلى رائف الذي مد يده. لم يبق إلا أن يترك العصا وينقل وزنه.

جاء رجل من فتحة بين الصخرتين، يحمل خطافًا مربوطًا بحبل. لم يقصد ضربه؛ ألقاه نحو الحزام والجراب. تعلق الخطاف بالقماش عند كتفه، وشد الرجل.

عاد نائل إلى الخلف. فقدت قدمه موضعها، واصطدمت العصا بالحجر.

رأى أوران ينحرف عن أزال.

قطع الحبل بضربة واحدة، وأمسك نائل من أعلى ذراعه. دفعه إلى رائف، الذي تلقاه حتى ارتطما بالجدار معًا.

في اللحظة نفسها تقدمت أزال من الجهة التي تركها أوران مكشوفة.

لم تضربه من بعيد، ولم تصرخ باسمه. دخلت داخل المسافة التي يحتاجها النصل ليرجع، ودفعت سيفها تحت ذراعه، عند الجانب الذي انفتح حين ألقى نائل نحو رفيقه.

رآها نائل بوضوح. قبضتها، وتقدم كتفها، وقصر الحركة. كان يستطيع أن يتذكر موضع كل إصبع من يدها لو سُئل بعد ذلك، ولم يستطع أن يصدر صوتًا حين وقعت.

أدار أوران جسده فأخرج الحد قبل أن تثبته أعمق. رد بنصله، فأصاب كتف أزال وأجبرها على التراجع. تلقاها أحد رجالها، ورفع درعه أمامها.

صاحت نيرفا من الجهة الأخرى. حاولت العودة عبر الحاجز، فأوقفها رفال حين رأى الحجر ينفصل تحت قدمها.

لم يسقط أوران بعد. وضع قدمًا على الصفيحة، ثم الثانية. كان سيفه منخفضًا، ويده الأخرى تضغط جانبه. مد نائل ذراعيه، فتعلق به ثقل لم يكن مستعدًا له.

وصلت نيرفا من الجانب وسندت أوران تحت كتفه. حملوا معه خطوتين، وثلاثًا. خلفهم حاول رجل القفز إلى الصفيحة.

قالت سدرا:

«أبعدوا أقدامكم!»

سحبت قضيبها. تركت الحجر الذي رفعته بجهدهم يفقد الدعامة التي أمسكت به، فانقلب إلى المجرى. سقط الرجل على ركبتيه عند الحافة، واندفع الماء حول الصفيحة، يأخذ معه الحصى والطين.

انقطعت الطريق المباشرة بينهم وبين أزال.

لم تنته المطاردة. سمعوا أوامر بالصعود إلى المسلك الأعلى. لكن الوصول إليه يحتاج إلى الرجوع حول الكتف، والخيل لا تعبر الحاجز.

رفع أوران يده عن جانبه لحظة ليمسك الجدار.

رأى نائل الدم يسيل إلى أصابعه.

لم يستطع أوران السير بعد المنعطف الثالث.

حاول أن يرفع قدمه فوق جذر يعترض المسلك، فوجد نائل الثقل كله ينتقل إلى ذراعه. أوقفته نيرفا قبل أن تنثني ركبتاه، ونادوا رائف. أنزلوه إلى الأرض، بعيدًا عن حافة الانحدار، وكانت يد نائل تحت ظهره حين أصاب القماش الدافئ كفه.

قال أوران:

«لا تقفوا هنا.»

لم يخرج الصوت كاملًا. انحنت إيسا وحاولت فك الحزام الذي يشد الرداء فوق الجرح. أخرج رفال سكينه، وقطع القماش بدل أن يحركوا الجسد كله.

وجد نائل عندئذ موضع الضربة. كان أضيق مما ظن، أضيق من الدم الذي يخرج منه. أخذ قطعة من ثوبه وضغطها عليه. أحس بجسد أوران يتصلب تحت يده، فأراد أن يخفف، لكن نيرفا وضعت كفها فوق كفه.

«اثبت.»

لم تقل له إن هذا سيكفي.

ذهبت سدرا مع رائف إلى المسافة التي يرونها من المسلك. عادا بخبر تجويف خلف جدار مهدم، ربما كان موضعًا يُجمع فيه الحجر قبل نقله إلى الحاجز. الأرض إليه تصعد قليلًا، لكن من يقف عند المخاضة لا يراه.

فك رفال الحبل عن جرابه، وجمعوا عباءتين على قضيب سدرا وغصن قطعه رائف. كان الغصن رطبًا، فانثنى حين جربوه. استبدلوه بآخر، بينما ظل نائل راكعًا لا يستطيع المساعدة بيديه.

فتح أوران عينيه ونظر إلى السكين التي يقطع بها رفال الرباط. ثم إلى نائل. «أصبتَ؟»

هز نائل رأسه.

«انظر إلى يدك.»

كانت فيها خدوش من الصخر، ودم معلمه. قلبها كأنه يحتاج إلى أن يراه هو أيضًا.

«ليست إصابة.»

حاول أوران أن يرفع رأسه، فأعاده نائل برفق. كان يعرف وزن رأس العجوز حين غلبه النوم مرة على السفينة. الآن استقرت في يده ملامح رجل آخر، ولم تختلف حركة البحث عن موضع أريح.

حملوه حين جهزت النقالة. سار رائف ورفال عند الطرف الأمامي، ونيرفا وسدرا عند الخلف. مشى نائل بمحاذاة الجانب المصاب، يضغط القماش كلما هزتهم خطوة. كانت إيسا تتقدمهم لتبعد الأغصان، ثم ترجع إلى نيرفا حين تراها تتعثر.

اضطروا إلى التوقف مرتين. في الثانية طلبت نيرفا من إيسا أن تأخذ مكانها لخطوات، فحاولت، لكن ذراعها لم تحتمل رفع النقالة من الأرض. بدلوا توزيع الحمل؛ حمل نائل الطرف، وجلست سدرا إلى جوار أوران لتضغط الجرح وهم يعبرون رقعة ضيقة. كل انتقال لليد احتاج أن يتفقوا عليه قبل أن يفعلوه.

فوقهم لمعت السماء بين الشجر. كانت الشمس قد تجاوزت الموضع الذي رأوها فيه عند المخاضة. سمع نائل من بعيد نداءً، ثم ردًا أبعد منه. لم يعرف إن كان الرجال يقتربون أو ينادون بعضهم عند الطريق المقطوع.

عند صخرة عريضة توقف رائف، وأشار إلى المسلك الذي يتابع صعوده. كانت عليه آثار أقدام حديثة، واضحة في الطين، أما الجهة التي قادته إليها سدرا فتجاوزت طرف الصخرة إلى رف ضيق لا يظهر من أسفل.

«نمر من هنا؟» سأل رفال.

وضعت سدرا قدمها واختبرت موضع الغصن الذي يحمل طرف النقالة.

«الموضع يحملنا. لكن لا تمشوا جنبًا إلى جنب.»

نقلوا النقالة على مراحل، طرفًا ثم طرفًا. تعذر على نائل أن يرى الأرض وهو يحملها، فأخذ تعليماته من رائف: نصف خطوة، توقف، قدمك إلى اليسار. كان عليه أن يصدق ما يراه رفيقه، وأن يبقي ذراعيه ثابتتين حتى ينتهي الآخرون من الانتقال.

فوقهم استمر الطريق صاعدًا. تحتهم انكسر المنحدر في حجر مكشوف، لا يحتفظ بأثر نعل. مسحت إيسا بقطعة قماش قطرتين سقطتا من الرداء على أول الصخرة. لفت سدرا حول جانب أوران قماشًا آخر، لم توقف به النزف، لكنه جمع ما كان سيتساقط خلفهم.

حين وصلت نيرفا إلى الطرف، رجعت بضع خطوات وحدها. صعدت إلى شق ترى منه المسلك الأعلى، وانتظرت حتى سمعت رجلين يتبادلان النداء عند الانعطاف. كانا يتابعان الأثر الصاعد، لا الرف الذي تحت أقدامهما. عادت تخبر رائف من أين يراقب. أشارت إلى الشق، وطلبت منه أن يناديها إذا رجع الرجلان.

لم يقطعوا مسافة كبيرة بعد ذلك، لكن جدار التجويف فصلهم عن رؤية الطريق. دخلوا من جانب ضيق بين الصخرة والبناء المهدم. لم يكن يصلح لمخبأ طويل، ولا لخوض قتال آخر. يصلح لأن ينزلوا الرجل الذي صار حمله يؤلمهم ويؤلمه، وأن يتفقدوا جرحه من غير سهم فوق أيديهم.

حين بلغوا التجويف، وضعوا أوران فوق غطاء جاف. مد رفال النقالة أمام المدخل لتخفي لون الرداء عن الطريق السفلي، وخرجت نيرفا ورائف ليتفقدا الجهة التي يمكن أن يصل منها المطاردون.

بقي نائل إلى جانب معلمه.

⁂

وقفت أزال عند طرف الحاجز، والدم يبلل الرباط تحت درع كتفها. رأى معاونها موضع الحجر الساقط، ثم نظر إلى الطريق الأعلى.

«وصل الرجال إلى منعطفه. يمكن أن نصعد وراءهم، لكنهم لا يرون أثرًا بعد الصخر.»

رفعت ذراعها فشد الجرح، وأعادتها إلى جانبها.

«راقبوا المخرج إلى الطريق. لا تُدخل الخيل حيث تعجز عن الرجوع.»

التفت إلى الرجل الذي ظل عند جوادها، وأمره أن يجهز رسولًا. استوقفته أزال قبل أن يمضي.

«يذهب الخبر إلى جروان نفسه.»

سألها عمّا يقول.

نظرت إلى الموضع الذي وقف فيه العجوز، ثم رفعت قدمها عن قطعة من قماش حزمته. كانت قد علقت بين الحجر والجذر، مبتلة من جهة واحدة. جاوزتها إلى طرف الحاجز.

«أوراس كان معهم.»

لم يتحرك الرجل.

قالت:

«فارس الجهات الثماني. رأيت نصله وعلامته.»

«ورأيتِه يموت؟»

طال صمتها هذه المرة.

«أصبته. حملوه معهم. قل هذا كما هو.»

أخذ الرسول الأمر وانصرف. أعادت أزال نظرها إلى المسلك، وأرسلت من يبحث عن عبور آخر.

⁂

لم يعد القماش نظيفًا من أي ناحية.

قلبه نائل مرة، ثم أدرك أن الحركة لا تفعل شيئًا. طلب من إيسا قطعة أخرى، فجثت قربه وفتحت جراب الضمادات الذي نجا معهم. كان الجراب الأصغر؛ الأكبر ظل مربوطًا إلى الدابة عند المخاضة.

مدت إليه ما وجدت. ضغط فوقه، وراح يعد أنفاس أوران من غير أن يقصد. كان يحصي حتى أربعة، ثم يضيع العدد حين يتأخر النفس التالي.

قال:

«هل نستطيع حمله إلى الدار التي ذكرها الدليل؟»

نظرت إيسا إلى الخارج. كانت قد سمعت رائف يسأل السؤال نفسه، ويجيب بأنهم لا يعرفون موضعه من هذا الجانب.

«نحتاج أن نعرف الطريق أولًا.»

«البوصلة.»

مد يده نحو جراب أوران، ثم توقف لأنه لا يستطيع أن يترك الجرح. أخذت إيسا البوصلة وأعطته إياها. فتح غطاءها بإبهامه. ارتجفت الإبرة مع رجفة كفه، فسوّاها فوق فخذه وانتظر.

أشارت إلى جهة وراء الجدار.

نظر إلى الصخر، ثم إلى وجه أوران. لم يكن في البوصلة اسم دار، ولا مقدار مسافة، ولا خبر عن رجل يستطيع وقف الدم. عرف ذلك كله، لكنه انتظر أن تتحرك إلى إجابة أخرى.

وضعت إيسا يدها على حافة الغطاء، ولم تغلقه.

«دعني أمسك القماش.»

هز رأسه. لم يرد أن يستبدله أحد في الشيء الوحيد الذي يفعل.

عاد رائف أولًا. قال إن نيرفا تراقب المسلك عند موضع ضيق، وإن القادم يحتاج إلى عبور صخرة مكشوفة قبل أن يراهم. يستطيعون سماعه. وضع قربة الماء قرب قدم نائل، ثم ابتعد إلى المدخل دون أن يسأله عن البوصلة المفتوحة.

تحركت يد أوران فوق الغطاء. لم تبلغ الجرح. أمسكها نائل وردها إلى صدره.

«لا تحركها.»

فتح عينيه. نظر إلى البوصلة، ثم إلى أصابع نائل التي ما زالت تقبض حافتها.

«أغلقها. سيدخل التراب.»



أطبق الغطاء.

كانت الجملة مألوفة إلى حد أوجعه. قالها أوران من قبل في مواضع لا يذكرها كلها: على ضفة، عند نار، فوق سطح تتحرك تحته المياه. لم يطلب منه أن يحفظ العالم، ولا أن ينجز الوصية الآن. أراد أن يغلق غطاء أداة يحملها.

قال نائل:

«نرجع إلى قاسران.»

لم يجبه أوران مباشرة. بدا أنه يحاول أن يبلع، فبللت إيسا طرف القماش ومسحت شفتيه. شكرها بتحريك أصابعه، ثم نظر إلى نائل مرة أخرى.

«أين الآخرون؟»

أشار إليهم واحدًا واحدًا. رائف عند المدخل. رفال يجمع الحبال. سدرا خارج الجدار. نيرفا تحرس المسلك. وإيسا هنا.

«خرجوا جميعًا.»

أغمض أوران عينيه، وخفت الشد في حاجبيه.

قال نائل بسرعة:

«وأنت خرجت.»

فتح العجوز عينيه من جديد. كان وجهه الحقيقي أمامه، لكن نائل لم يجد اسمًا آخر يناديه به.

«أوران.»

جاء الرد في ضغط ضعيف على أصابعه.

مال نائل أقرب. أراد أن يسأله كيف يوقف ما يحدث داخل الجسد، ولماذا يستطيع أن يشعر بامتداد تحت حجر ولا يستطيع العثور على شيء يصلحه هنا. بقي السؤال عند فمه. كان يعرف أن معلمه لا يخفي عنه جوابًا ينقذه، وأن إصراره على السؤال لن يصنعه.

«أنا هنا»، قال بدلًا منه.

تحركت عين أوران نحو المدخل، ثم عادت إليه. ارتفعت يده قليلًا عن الغطاء، كأنه يريد أن يضعها على رأسه. رفع نائل جبهته إلى اليد قبل أن تهبط.

أحس بملمس الأصابع عند منبت شعره. اليد نفسها التي صححت قبضته على العصا، وأبعدته عن حافة سفينة، ووضعت له حجرًا صغيرًا كي يعرف أين وقف أول مرة.

قال أوران:

«ارفع رأسك قليلًا. لا أراك.»

رفعه.

نظر إليه أوران مدة لم يعرف نائل طولها. ثم خرج النفس الذي كان يحاول أن يأخذه، وانفرجت الأصابع فوق الغطاء.

انتظر نائل النفس التالي.

تحركت إيسا عند كتفه، لكنه لم ينظر إليها. وضع يده قرب فم أوران، ثم على صدره، ثم أعادها إلى الموضع الأول. لم يثق بأن أصابعه تستطيع تمييز شيء وهي ترتجف هكذا.

ناداه مرة أخرى.

عند المدخل ظهر ظل نيرفا. دخلت على مهل، وجلست من الجهة الأخرى. وضعت أصابعها عند عنقه، وانتظرت. ثم سحبت يدها.

قال نائل:

«كان يتكلم.»

لم تجبه بجملة عن الموت. أخذت القماش المشبع من يده، لأن أصابعه كانت قد تشنجت عليه، ووضعته إلى جانب الغطاء. ظل ينظر إلى الموضع الذي كانت يده تضغطه. لم يخرج الدم بالسرعة نفسها الآن.

انحنت إيسا وسوت الرداء فوق الجرح.

لم يعد الوجه إلى هيئة العجوز.

انتظر نائل ذلك لحظة من غير أن يدري. أن تعود الخطوط التي يعرفها، أن يثقل الجفنان بالطريقة القديمة، أن يصير الرجل الممدد هو الرجل الذي يستطيع أن يراه إذا أغمض عينيه. لكن الحجاب الذي رفعه أوران لم ينسدل.

بدا ساكنًا على نحو لم يره عليه في النوم. مد نائل يده إلى فكه، ثم توقف عند أثر صغير قرب الذقن. لم يكن يعرف إن كان رآه من قبل تحت اللحية

والظل. رفع الرداء إلى كتفيه كما اعتاد أن يفعل حين يبرد، وترك الوجه مكشوفًا.

سمع رفال يسأل من الخارج عن الماء. لم يكن أحد يحتاج إلى ماء في تلك اللحظة، لكن إيسا أعطته القربة. أخذها وجلس قرب المدخل، يحاول شد سدادة لا تحتاج إلى شد.

لم تبك سدرا حين دخلت. نظرت إلى القماش عند جانب أوران، ثم إلى الحزمة التي لم يعد فيها النصل. سألت عن السلاح، فالتفت نائل إلى الأرض حتى وجده قرب الجدار، حيث وضعته نيرفا حين حملوه. كان عليه دم وماء وطين.

أخذت قطعة قماش، وجلست تنظفه.

بعد وقت رفعت نيرفا عينيها إلى نائل.

«الوجه الذي رأيناه عند الماء...»

لم تكمل.

قال:

«هو وجهه.»

نظرت إلى أوران مرة أخرى. كان في نظرتها بحث لم تره منه يوم دخلا قاسران، حين لم تجد في ملامح العجوز ما تعرفه.

«من كان؟»

شعر نائل بأن الاسم سيجعل ما حدث أكثر حقيقة، كأنه إذا نطقه أغلق بابًا لا يستطيع فتحه.

«أوراس. فارس الجهات الثماني.»

لم تُعد الاسم وراءه. انتقل بصرها من النصل الذي تنظفه سدرا إلى البوصلة قرب ركبة نائل، ثم إلى وجهه. فتحت فمها قليلًا، وأطبقت شفتيها قبل أن يخرج سؤال.

عرف أنها تريد أن تسأل شيئًا آخر. ولم يملك طاقة أن يخفي أو يشرح.

لكنها نهضت وأعادت القربة إلى رائف.

«أراقب الطريق قليلًا. نحتاج أن نعرف إن كانوا يقتربون.»

مرت قرب نائل، ولم تطلب منه جوابًا.

⁂

لم يقرروا موضع القبر فورًا.

خرج رائف إلى أعلى الجدار ليرى أين ينتهي التجويف، وعادت سدرا معه. كان وراءه شريط من تربة لينة نسبيًا، محصورًا بين أصل شجرة وصخرة طويلة. أبعد من الطريق بما يكفي ليخفى على المار، وأقرب إلى المدخل من أن يحملوا الجسد مسافة أخرى.

قالت سدرا إنها تستطيع أن تزيح الحصى، لكن لا تعرف ما تحته قبل أن تفحصه. أخذت قضيبها، وضغطت به في مواضع متفرقة. حين بلغ الصخر في أحدها، انتقلت إلى الجانب الآخر.

ظل نائل إلى جوار أوران. كان يستطيع أن يسمع العمل: كشط الحديد في التراب، وصوت حجر يلقى بعيدًا، وحذاء رفال حين يرجع إلى المدخل ليتفقد نيرفا. لم يكن يريد أن يقوم، ولا أن يتركهم يفعلون كل شيء.

أغلق أصابع أوران حول لا شيء، ثم فتحها من جديد. لم يعرف ما الوضع الصحيح ليد رجل مات. استقرت أخيرًا فوق الرداء، وأبقاها كما وجدها.

عندما قام، وجد البوصلة عند قدميه. رفعها. كان على حافتها أثر داكن من كفه، فمسحه بطرف ثوبه. لم يفتح الغطاء.

في الخارج قال رفال إن التربة تنحفر أسهل بعد الطبقة العليا. مد إليه الأداة التي صنعها من قطعة حديد مسطحة وجدوها عند الجدار. جثا، وغرس الحديد حيث انتهى رفال، وأخرج أول حفنة.

كانت الحركة بطيئة. تتجمع التربة على الأداة ثم يسقط نصفها قبل أن يبعدها. صحح رفال قبضته بصمت. حمل رائف التراب على قطعة من القماش وأفرغه وراء الصخرة، فيما أبعدت سدرا الأحجار التي تمنعهم من تعميق

الحفرة. استعانت بالأثر في حجر واحد عالق بين جذرين، ثم تركته حين أحست بالجذر يتحرك فوق رأسها.

بعد مدة بدأ كتف نائل يؤلمه. غير يده، وواصل حتى أمسكت إيسا معصمه.

«دور رائف.»

كاد يقول إنه يستطيع، لكنه رأى الدم يعود إلى أحد الخدوش. أعطاها الأداة، وجلس عند الصخرة. كانت الشمس قد تحركت إلى الجانب الآخر من المدخل. بين الشجر أصوات عصافير لم يسكتها موت أحد.

رجعت نيرفا بخبر الرجلين اللذين رأتهما على الطريق الأعلى. وقفا عند موضع يشرف على المجرى، ثم تابعا إلى الشرق دون أن ينزلا. لا تعرف إن كانا سيعودان. كانوا يستطيعون أن يتحركوا قبل حلول الليل، إن انتهوا هنا في الوقت المناسب.

حين جهز الموضع، حملوه على الغطاء الذي استلقى عليه. أمسك نائل جهة الرأس مع رائف. كانت نيرفا عند المدخل تراقب، وإيسا إلى جانبهم تمسك الرداء كيلا يجر على الأرض. وضعوه أولًا قرب الحفرة، وأعادوا توزيع أيديهم قبل أن ينزلوه.

أرادت سدرا أن تعطي نائل النصل. نظر إليه طويلًا، ثم أشار إلى الغطاء.

«معه.»

لم يكن يحتاج إلى سلاح ثانٍ. ولم يرد أن يحمل ما لا يعرف كيف يحمله، كأن موت صاحبه جعله صاحبه التالي. لفوا الحد بالقماش الذي نظفته سدرا، ووضعوه إلى جانب أوران، بعيدًا عن اليد التي تركها نائل فوق صدره.

جلس نائل عند رأسه قبل أن يسووا الغطاء.

كانت لديه أشياء كثيرة ينبغي أن يقولها: ما لم يسأله عنه في الجزيرة، وما ظن أن الطريق سيمنحه وقتًا ليتعلمه، وحركة صغيرة فعلها أوران في القتال لم يستطع فهمها. جاءت كلها معًا فلم يستطع اختيار واحدة.

لم يكن وجه الرجل أمامه يعينه. أغلق عينيه، فرآه عجوزًا عند نار، يحرك إناءً كيلا يحترق ما فيه. فتحهما، فوجد الوجه الحقيقي ساكنًا في الضوء

المائل. الرجل نفسه عرف موضع النار وموضع النصل، ولم يترك له وقتًا طويلًا ليرى كيف يجتمعان.

قال بصوت لم يرفعه إلى الآخرين:

«أخذت البوصلة.»

ثم سحب الغطاء فوق الوجه.

تولى رائف أول التراب. وضعه بيديه عند الطرف، لا فوق الموضع الذي جلس عنده نائل. بعده اقترب رفال. لم يقل شيئًا، لكنه أعاد الحلقة إلى جرابه قبل أن يغرف، كأنه يريد أن يفعل ذلك بيديه وحدهما.

نقلت إيسا الأحجار الصغيرة بما استطاعت. وعندما احتاجوا إلى تثبيت التراب من جهة الانحدار، اختارت سدرا حجارة تتداخل من غير أن تضغط الجذر. لم تصنع علامة يراها الطريق. اكتفت بثلاث قطع تحت أصل الشجرة، في جهة لا تظهر إلا لمن يقترب من الصخرة الطويلة.

رسم رائف الموضع: الجدار المهدوم، والانحناء في الشجرة، والصخرة التي تنتهي بطرف فاتح. كتب المسافة التي قطعوها تقريبًا من المخاضة، ثم راجعها مع سدرا. سيستطيعان وصفه لسايرن.

أعاد نائل حفنة من التراب تساقطت خارج الحافة. سواها بأصابعه، ووقف.

ظل ينظر إلى الموضع منتظرًا أن يتغير فيه شيء بعد أن صار قبرًا. لم يتغير إلا ما فعلوه بأيديهم.

⁂

وجدته نيرفا عند الجدار الذي حملوا أوران من خلفه. كان يحاول تنظيف كفه بالماء القليل الباقي، فيصب قطرة ويفرك، ثم يعيد الفعل. وقف الدم عند الخدوش، لكن اللون علق تحت أظفاره.

أخذت القربة حين فرغ من صبة أخرى.

«نحتاج الباقي للطريق.»

نظر إلى الماء فيها، فتركها.

جلست على حجر منخفض. لم تمد ساقها المصابة أمامه، بل وضعتها على جانبها حتى لا تحتك الحافة بالجرح.

قال نائل:

«لو قبلت الرجال...»

لم تعترض قبل أن يكمل.

«لو كانوا معنا، ما اضطر أن يقف وحده هناك.»

رفعت نظرها إلى الجدار، حيث ترك السرير المرتجل أثرًا طويلًا في التراب.

«ربما ما اختارت أزال ذلك الموضع. وربما اختارت غيره.»

«لكننا لم نترك لها إلا نحن.»

«اخترنا طريقًا قال الحراس إنه مفتوح. وسألنا عن العابرين. وحين رأينا أثر الخيل رجعنا.»

كان يتذكر كل ذلك، وهذا ما جعله أكثر إيلامًا. الاحتياطات التي بدت كافية عند السقيفة صارت صغيرة حين قارنها بالنصل الذي دخل تحت ذراع أوران.

قال:

«هي أصابته لأنه أنقذني.»

خفضت نيرفا عينيها إلى يديه.

«نعم. وأزال هي التي اختارت أن تضربه.»

لم تسمح له أن يحول نظره إلى الطريق قبل أن تضيف:

«رأيتها. لم تكن ضربة ضاعت في القتال. رأته يخرجك من يد رجلها، فتقدمت.»

فرك نائل إبهامه فوق الموضع الذي نظفه بالماء.

«لا أستطيع ألا أرى يده وهي تدفعني.»

سكتت نيرفا. طال صمتها حتى ظن أنها انتهت من الحديث. كانت تنظر إلى كفها هي، إلى المكان الذي استقر عليه القلم في الصباح قبل أن تنطق اسم دارِن.

قالت أخيرًا:

«لا أطلب منك ألا تراها.»

أخذت قطعة قماش صغيرة، بللت طرفها، ووضعتها قرب يده.

«راجع ما اخترته. سنحتاج إلى ذلك. لكن لا تحمل قرارها معها.»

مسح تحت ظفره. خرج بعض اللون، وظل بعضه.

«وإذا أخطأت مرة أخرى؟»

«لن نتركك تختار وحدك ثم نقف بعيدًا لنحسب عليك النتيجة.»

كانت تلك أول مرة تقولها على هذا النحو. رفع رأسه إليها، فوجدها تنظر إلى القربة، لا إلى وجه ينتظر منها طمأنة لا تملكها.

جاء رائف، وتوقف بعيدًا حتى أشارت إليه أن يقترب. حمل الرسم مفتوحًا بين يديه.

قال:

«يجب أن نختار قبل أن يختفي الضوء.»

⁂

مدوا الورقة فوق حجر جاف. كان طرف منها قد اسود عند تحرير التحصين، وطرف آخر ابتل في المخاضة. استقرت يد نائل على الزاوية التي أراد الهواء رفعها.

قال رفال:

«نستطيع الرجوع من أعلى. إذا بلغنا الحراس...»

أشارت سدرا إلى خط المنحدر.

«نستطيع بلوغ الجهة التي فوقهم. لا أعرف طريق النزول إليها من هنا.»

قالت نيرفا إن أزال تعرف نقطة الحراسة التي مروا بها، وإن العودة ستقربهم من الرجال الذين رأتهما في الأعلى. طلبت من رائف أن يقارن المسافتين على ما يعرفه، وأن يترك ما لا يعرفه خاليًا.

فعل.

إلى الغرب حاجز الماء والكمين، ثم النقطة التي يمكن أن تحميهم إن بلغوها. إلى الشرق مسلك ضيق يلتقي بطريق دار الطريق القديمة. قارن رائف ارتفاع الأرض بما وصفه الدليل، ومد الخط حتى موضع التقائهما.

سألت إيسا:

«وأين نملأ الماء؟»

دلت سدرا على منخفض رطب رأته حين بحثت عن موضع القبر. قد يجمع رشحًا يكفي القرب إن انتظروا قليلًا، وإلا فالآبار عند الدار. ذهبت إيسا معها لتراه، وعادتا بماء قليل صافٍ بعد أن تركتا الطين يهبط في حفرة صغيرة. قسمته على القرب، واحتفظت بآخره لغسل الجروح قبل أن يتحركوا.

سأل نائل رفال عن يده. فتحها وأغلقها مرتين.

«أستطيع حمل الجراب. لا تطلب مني أن أمسك طريقًا آخر اليوم.»

قالت سدرا إنها تحتاج إلى الراحة أيضًا. وإن اضطرت إلى استعمال الأثر، فلن تعدهم بأكثر مما فعلته عند الصفيحة.

نظر إلى نيرفا. أجابت قبل أن يسأل:

«أمشي. أبطأ منكم. نجعل هذا في الحساب.»

نظر إلى ساقها. ظهر الدم من جديد على طرف الرباط. أخرج بقية الضماد من الجراب ومده إليها.

أخرج البوصلة من جيبه. أمسكها مغلقة لحظة، ثم فتحها. انتظر حتى استقرت الإبرة، وقارن جهتها بالرسم. لم يجد أوران إلى جانبه ليتأكد من أنه سوّاها كما ينبغي.

سوّاها بنفسه.

قال:

«نتجه إلى دار الطريق. نعرف من فيها قبل أن نقترب. إن كان الطريق إلى إيفارا آمنًا، نتابعه.»

سأل رفال:

«وإن لم يكن؟»

«نتوقف قبل الدار ونبحث عن موضع نحتمي فيه. لا ندخل لأننا تعبنا فقط.»

رفع رائف عينه من الورقة، ثم أضاف علامة عند الموضع الذي سيصعد منه ليرى الدار قبل الآخرين. قالت نيرفا إنه لن يذهب وحده، وإنها تستطيع أن ترافقه ما دام لا يحتاج إلى العدو.

راجع معهم أين ينتظر الباقون، وما الإشارة التي تعيدهم إذا ظهر الخطر. ثم سأل إن كان لأحدهم طريق يراه أصلح.

لم يجبه أحد فورًا. نظر كل منهم إلى الرسم من جهته. قالت إيسا إنها لا تريد العودة إلى السفينة ما دام مرساها مستورًا، لأن المطاردين قد يتبعونهم إليها. وافق رائف. وطلبت سدرا أن يبعثوا إلى سايرن خبرًا من أول موضع يجدون فيه رسولًا يمكن الوثوق به.

«نكتب الموضع نحن»، قالت، وأشارت إلى ورقة القبر. «لا نصفه لرجل ثم ننتظر أن يتذكر.»

أدخل رائف الورقة في جراب منفصل عن رسم الطريق.

نهضوا ببطء. أعادوا توزيع ما نجا من المتاع؛ خسروا الدابتين وأكثر الطعام، لكن معهم الأغطية والقرب وما حمله كل واحد على جسده. شد رفال رباط جراب نائل من الخلف لأن ذراعه المتعبة لم تبلغ العقدة، وثبتت إيسا غلاف الأثر في جانب سدرا بحيث لا يتأرجح مع المشي.

بقي من أمتعة أوران قربة صغيرة، وقطعة قماش مطوية، والبوصلة. أخذ رائف القربة. وضعت إيسا القماش بين الضمادات التي لم تُستعمل. أما البوصلة فكانت في يد نائل.

اقترب من القبر مرة أخيرة. حفظ الشجرة والصخرة والجدار كما رآها، ثم التفت.

كان رفاقه ينتظرونه عند أول المسلك. في الوسط فراغ لا يتسع إلا لرجل واحد.

كاد يترك لهم هذا الموضع ويتجه إلى الجانب الذي اعتاد أن يمشي فيه. ثم أغلق البوصلة وأدخلها في جيبه، وتقدم إلى أول الطريق.

عند الانعطاف رفع يده كي ينتظروا حتى يرى ما وراءه.

انتظروا.

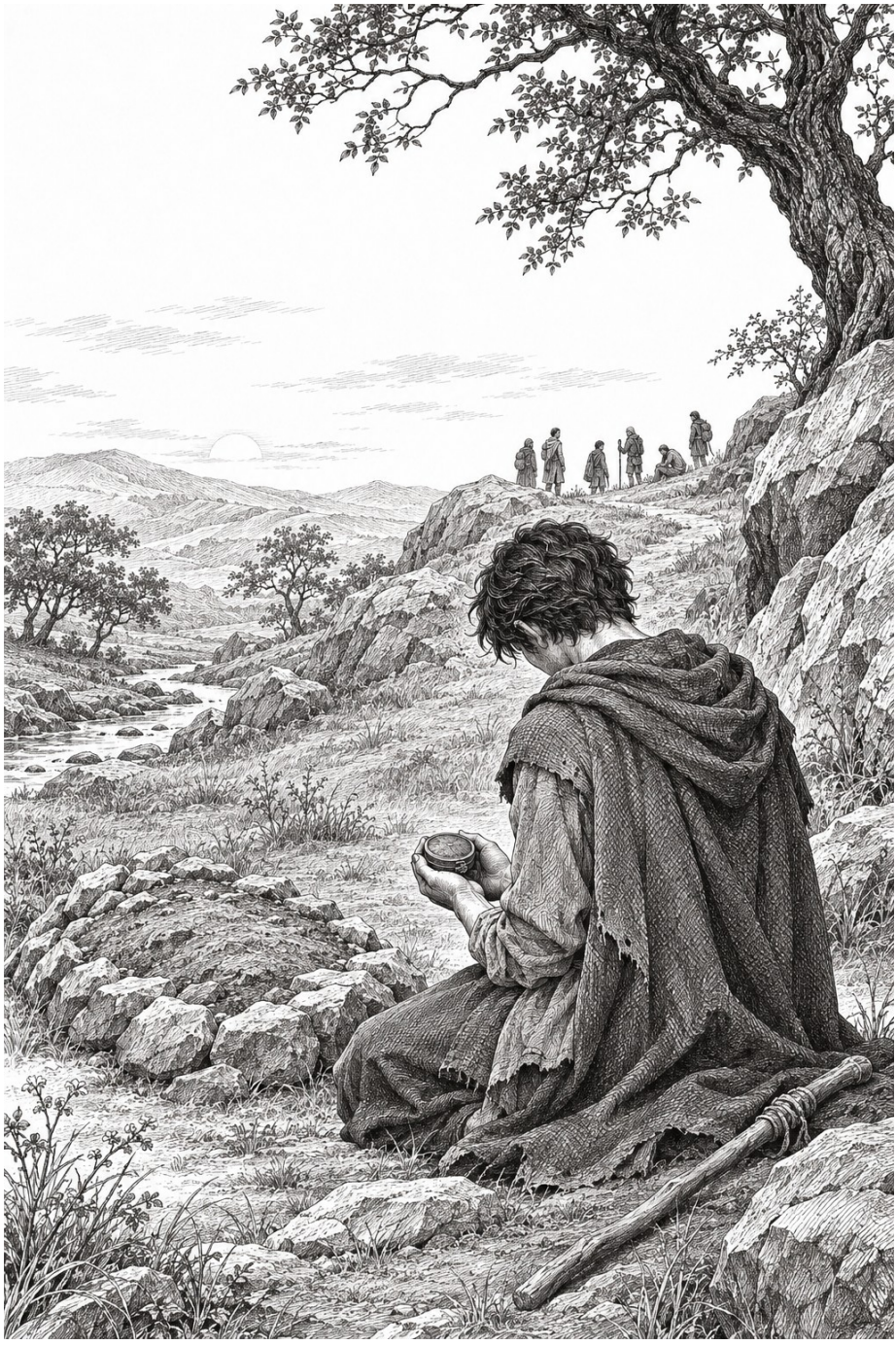

⁂

كان أول ما طلبته المرأة في دار الطريق أن يُبعدوا الأغطية عن الجرح قبل أن تجف عليه.

أدخلتهم من باب جانبي يفضي إلى موضع فيه ماء ساخن ومقعد طويل. جلست نيرفا على طرفه، وترك رفال جرابه عند قدميها. حين مدت المرأة يدها إلى الرباط، قبضت الفارسة على حافة الخشب، ثم أرخت أصابعها حتى استطاعت أن ترفع ساقها حيث طُلب منها.

وقف نائل قرب الباب يحمل القرب. جاء رجل ليسأله عن عددهم، فعدّ الوجوه بعينيه قبل أن يجيب.

«ستة.»

كتب الرجل العدد على لوح صغير، وسأل إن كانوا يريدون خبزًا لما بقي من الطريق. وضع نائل النقود التي وجدها في جرابه فوق الطاولة. فرّقها الرجل بإصبعه، ثم رد بعضها إليه وقال إن عربة ستخرج إلى إيفارا في الصباح، وإن صاحبها يقبل حمل المصابين إن ساعده القادرون عند الصعود.

باتوا حيث أُنزلت أكياس فارغة من مخزن الحبوب. قبل أن ينام نائل، أخرج رائف ورقة القبر، وأعاد نسخ ما أصابه البلل. قرأ عليه وصف الجدار والصخرة والشجرة. صحح نائل جهة واحدة، ثم تابع حركة القلم حتى جف الحبر.

في الصباح سار إلى جانب العربة. عند كل مرتفع وضع كتفه مع رفال تحت لوحها الخلفي، وحين تنبسط الأرض يمشيان وراءها. كانت نيرفا تجلس قرب إيسا، وبينهما جراب الضمادات، فيما اختارت سدرا أن تسير حتى تستطيع مراقبة الأرض التي تشتد عليها رجفة العجلات.

مروا ببيوت خرج أهلها إلى الطريق يسألون عن قاسران. أجاب رائف بما سمعه من سايرن عن التحرير، وترك ما لم يعرفه لمن يأتي بعدهم. عند القرية التالية وجدوا الخبز أغلى، والرجال يتحدثون عن خيل زافرين قرب الحدود.

وفي الثالثة أوقف الحرس العربة، وعدّوا أكياسها، وطلبوا من صاحبها اسم الرجل الذي سيشتريها.

كلما اقتربوا من إيفارا، صار السؤال عن الغلال يسبق السؤال عن المسافرين.

دخلوا المدينة بعد ثلاثة أيام من وصولهم إلى دار الطريق. كانت الشمس في وسط السماء، لكن الظل تحت الباب مزدحم برجال ينتظرون أن يفرغ الكاتب من تسجيل أحمالهم. انحنت امرأة إلى سلة فيها طعام، وأخرجت منها شيئًا لطفل جلس على الحجر. خلفها رجل يحتج لأن الحارس يريد فتح كيس سبق أن فتحه عند المعبر.

رفع رائف رأسه إلى البناء فوق الباب. أشار إلى شق ضيق بين برجين.

«من هنا كنت أرى صفوف الداخلين، وأظن أنهم يصلون جميعًا إلى المكان نفسه.»

سأله نائل:

«ومن أين ندخل نحن؟»

مشى رائف إلى الحارس الذي يقف عند الباب الأصغر. تكلم معه قليلًا، ثم كتب اسمًا على ورقة صغيرة. عاد الرجل بورقة أخرى، وانتظر حتى قرأها رائف.

«مِهراز في القصر. أرسلوا إليه.»

جلسوا قرب السور ينتظرون. أخرجت إيسا يدها من الحمالة بحذر وحركت أصابعها، ثم ردتها. كان الرباط الجديد أنظف، لكن نائل رأى أنها ما زالت تختار كل حركة قبل أن تفعلها.

من الجهة الداخلية مر فرسان يقود أحدهما حصانًا بلا راكب. علق على سرجه جراب ممزق، وفيه سهام انكسرت أطرافها. توقفا أمام ضابط، وأخفض الراكب صوته. استطاع نائل أن يسمع اسم زافرين، ثم عددًا من الأيام.

نهضت نيرفا. سارت إليهما، وعادت بعد وقت ومعها الضابط.

سأل رائف عمّا رأوه، فقال الرجل إن الكشافة أحصوا خيامًا جديدة وعربات ذخيرة وراء الحدود. لم تقع معركة هناك، لكن الطرق التي كانت تعبرها القوافل بدأت تخلو.

قالت نيرفا:

«وهذا الحصان؟»

«سقط صاحبه حين رجع من المنحدر. نُقل قبله إلى دار العلاج.»

تابع الرجل طريقه. أبقت نيرفا عينيها على الجراب الممزق حتى غاب.

وصل رسول مِهراز بعده بقليل. عرف رائف من بعيد، فرفع يده إليه، ثم تباطأ حين رأى وجوه المجموعة وثيابها. سأل عن أوران وهو يتقدم.

أجابه نائل:

«مات في الطريق.»

توقف الرجل. نزع غطاء رأسه، وبحث بعينه عن شيء يقوله. حمل أحد الجرابين بدلًا من ذلك، وسار بهم إلى الداخل.

⁂

كانت سيراي واقفة في ممر تطل نوافذه على ساحة صغيرة، تقرأ قائمة يمسكها دارِن من طرفها. عند النافذة الأخرى وُضعت أقمشة ولفافات، وفي آخر الممر وقف رجل ينتظر خاتمًا يختم به ورقة.

رفع دارِن رأسه حين اقترب الرسول. طوى طرف القائمة، ثم سلمها إلى سيراي ومشى نحوهم. نظر إلى نيرفا أولًا، وإلى رائف، ثم استقر بصره على نائل.

«مِهراز ينتظركم. أخبرته بوصولكم.»

سمعت سيراي اسم قاسران في كلام الرسول، فتقدمت. كان نائل قد رآها من قبل، لكن الوقفة التي واجهتهم بها جعلته يستقيم من غير أن يقصد. تحرك نظرها بين الوجوه حتى بلغ آخر الصف، ثم عاد إليه.

«وصلتم من عند سايرن؟»

«تركناه في قاسران. استعادوا التحصين الغربي، وكانت المواقع الجنوبية تسلّم حين رحلنا.»

أغلقت أصابعها على الورقة.

«هو بخير؟»

«رأيته يمشي إلى الرجال حين خرجنا. كان يراجع مع قرهان طريق المؤن.»

سألته إن كان جُرح، فذكر ما رآه من خدوش القتال، وما لم يره من عجز أو إصابة تعيقه. لم يعرف أي جواب تحتاجه أكثر من ذلك، فانتظر.

قالت:

«وصلتني رسالته بعد أن عدت إلى إيفارا. كتب أنه بلغ أخته.»

خفضت عينيها إلى القائمة في يدها، ثم أعطتها لدارِن.

«كل ما وصل بعدها كان عن المعركة.»

تذكّر نائل سايرن عند باب دار الملكة، وكيف قال إنه كان سيرافقهم لولا الرجال الذين ينتظرونه في الجنوب. أخبرها بذلك. مسحت سيراي بطرف إصبعها ثنية في كمها، ثم أشارت إلى الغرفة المجاورة.

«تعالوا. تستطيعون الجلوس هنا حتى يفرغ أبي.»

عند العتبة التفتت إلى الرسول، وسألته بصوت منخفض عن الرجل الذي كان معه. سمع نائل اسم أوران، فتوقف قبل أن يجلس.

قال:

«نحتاج إلى أن يعرف سايرن ما حدث.»

أخرج رائف الورقة المحفوظة في جرابها المنفصل. لم يفتحها أمام المنتظرين في الممر. أخذتهم سيراي إلى الطاولة القريبة من النافذة، وأغلقت الباب بعد دخول دارِن.

وضع نائل الورقة أمامها، وبدأ بما استطاع أن يقوله: المخاضة، وأزال، والطريق الذي قطعوه، ثم موضع الجدار والصخرة. في منتصف الوصف توقف، لأن الكلمة التالية كانت اسم أوران مرة أخرى.

لم تتناول سيراي القلم من يده.

انتظرت حتى أكمل، ثم سألت عن الوقت الذي مر منذ تركوا المكان، وعن احتمال وصول المطاردين إليه. أجابت نيرفا بما رأته في المسلك الأعلى. أضاف رائف جهة الصخرة إلى الرسم، ووضع علامة عند الشجرة.

قال دارِن:

«أرسل رجلًا سلك الطريق إلى قاسران معي. يحمل رسالتك في غلافها، ورسالة الأميرة إلى سايرن. إن أُغلق المعبر، يعرف موضع تبديل الخيل عند الطريق الآخر.»

نظر نائل إلى سيراي.

«يصل إليه هو؟»

«إليه. وإن تعذر، يعود بالخبر إلينا.»

كتب نائل اسم سايرن أعلى الورقة. كتب بعده ما جرى في عبارات قصيرة، وحين بلغ آخرها رأى بقعة حبر اتسعت تحت القلم لأنه توقف طويلًا عند المكان نفسه. انتظر حتى جفت، ثم طواها فوق رسم رائف.

لفت سيراي رسالته بغلاف آخر وختمته. سلمته إلى دارِن، وأبقته واقفًا حتى سألته عمّن سيحمله بالاسم. أجاب، وخرج ليحضره.

من خلف النافذة ارتفع صوت رجلين يختلفان على إنزال عربة. مالت سيراي لترى، ثم أرسلت أحد الواقفين في الممر ليفتح الباب الجانبي للمخزن. عادت إلى الطاولة، ولم تسأل نائل عن تفاصيل الضربة.

قالت:

«هناك غرفة لكم قرب موضع المعالج. ترتاحون فيها بعد اللقاء. سأطلب أن يحملوا إليها الطعام.»

تردد نائل في شكرها. اكتفى بأن أزاح عن الطاولة القلم الذي استخدمه، ومسح أثر الماء الذي تركته القربة.

دخل مِهراز قبل أن ينهضوا. نظر إلى رائف، فقام الرجل من مقعده. التقيا عند طرف الطاولة؛ وضع الحافظ يده على كتفه.

قال:

«عدت والطريق كله في وجهك.»

«وأشياء ينبغي أن نريك إياها.»

نقل مِهراز بصره إلى نائل. كان يعرفه، ويعرف ما فعله في إيفارا قبل أن يغادرها. حرك كرسيًا يعترض الممر ليفسح للمصابين، ثم قال إن الملك يملك وقتًا الآن قبل أن يعود قادة الحدود.

⁂

لم يرفع أردان الخريطة العسكرية عن الطاولة حين دخلوا. نقل كأس الماء بعيدًا عن الورق، وطلب إلى الكاتب أن ينتظر عند الباب. خلفه نافذة مفتوحة يأتي منها صوت مطرقة تصلح شيئًا في الساحة.

تكلم رائف أولًا، وعرّف بسدرا ورفال. عرفت نيرفا نفسها بصفتها ومسؤوليتها عن رجال رهفان الرافضين لإيردان، فأشار الملك إلى خبر وصل في الصباح يؤكد انسحاب بعض الوحدات من مواقع قاسران.

قال:

«ميرافا استعادت طريقًا كانت تحتاجه. ونحن نحتاج أن يظل مفتوحًا.»

شرح نائل ما تركوه هناك، وما عرفوه عند بوابة المدينة. حين ذكر أزال، قرب أردان الخريطة منه وطلب تحديد موضع الكمين. أشار نائل إلى المكان التقريبي، ثم ترك لرائف تصحيح المسافة.

سأل الملك عن أوران.

أجاب نائل بما قاله عند الباب. انخفضت المطرقة في الخارج لحظة، فسمع آخر كلمته أكثر مما أراد. انتظر أردان حتى رفع رأسه، ثم سأله عمّا جاءوا يطلبونه من إيفارا.

وضع نائل يده على طرف الطاولة. كان أوران في مثل هذا الموضع يبدأ بالكلام عن الطريق والأثر، ويترك له ما يخصه. نظر إلى الفراغ بجانب رائف، ثم قال:

«نحتاج إلى قوة إيفارا. وإلى أن نعرف كيف نصل إليها من غير أن نفقد من يحملها.»

رفع مِهراز عينيه إليه.

قال أردان:

«وصلني أنكم خرجتم من قاسران بشيء أذنت ميرافا بخروجه. أريد أن أفهم ما تجمعونه.»

تحركت نيرفا عند طرف الطاولة.

«إذا أذنت، ألحق بمن جاء من الحدود قبل أن ينصرف. أستطيع أن أميّز بعض الوحدات التي كانت تعمل مع رجال رهفان.»

نظر إليها نائل. كانت واقفة، وإحدى يديها تستند إلى ظهر الكرسي. لم تنظر إلى يده التي اقتربت من غلاف الختم.

أذن لها الملك، واستدعى الكاتب ليرشدها إلى موضع القادة. خرجت معه، وأغلق مِهراز الباب من الداخل.

أخرج نائل الختم ووضعه على القماش أمام أردان.

لم يتناوله الملك فورًا. نظر إلى العلامة التي ظهرت حين لامست أصابع نائل سطحه، ثم طلب أن يرفعه إلى الضوء. فعل. تحركت الخطوط الدقيقة عند الحافة، واستقرت على الهيئة التي رأى من قبل كيف تتغير لها وجوه من يعرفونها.

قال أردان:

«كنا نحفظ وصف العلامة، لا خبر من يحملها.»

أعاد نائل الختم إلى غلافه قبل أن يجيبه.

«رأينا أثيرا.»

توقف مِهراز عن ترتيب ورقة أمامه. سأله عن الطريق إليها، فقال نائل ما يكفي لبيان العبور المؤقت واضطراب البحر وحاجة الأرض إلى القوى. أضافت إيسا ما رأته من الماء، ورائف ما ثبت له من المعالم. ظل أردان يسأل حتى صار

طلبهم محددًا أمامه: أثر إيفارا الأصلي، وحامل مستقل لقوته، ومملكة لا يستطيعون إخراج أهلها بعد.

عندما انتهوا، وضع الملك إصبعه على موضع إيفارا في الخريطة العسكرية.

«حفظنا هذا الأثر على أن يبقى حيث يستطيع أهل إيفارا الوصول إليه. إن خرج، أحتاج أن أعرف اليد التي سيذهب معها.»

نظر رائف إليه، ولم يتقدم.

قال مِهراز:

«رأيت ما يقرأه هذا الرجل حين ينظر غيره إلى الورق. لنعرض عليه المحفوظ أولًا.»

وافق أردان. طلب ألا يُنقل شيء قبل أن يُفحص، وأن يرافقهم الحافظ بنفسه. ثم استدعى الكاتب وأملى له إذنًا يفتح لهم سجل الحفظ وموضع الأثر، ووقّعه قبل أن يخرج القادة من الغرفة الأخرى.

عند الباب توقف نائل ليعيد ترتيب العصا تحت ردائه. لمح سيراي واقفة في الممر، تستمع إلى دارِن. كان الرجل الذي سيحمل الرسالة إلى سايرن عند آخر الدرج، يشد جرابه إلى صدره. رفع دارِن يده إليه، فمضى.

تابع نائل الحافظ إلى الجهة الأخرى.

⁂

كان باب موضع الحفظ منخفضًا بما جعل مِهراز ينحني قليلًا وهو يفتحه. ناول المفتاح إلى الحارس بعد أن دار في القفل، ثم طلب إليه أن ينتظر خارج العتبة. دخل رائف وراءه، وبقي نائل لحظة ينظر إلى الخشب الذي صُقل حول موضع القبضة من كثرة الأيدي.

في الداخل ضوء يكفي لرؤية الرفوف، ويضعف عند آخر الغرفة. رفع الحافظ سترًا عن تجويف في الجدار، فكشف قطعة داكنة تستند إلى قاعدة ضيقة. كان عرضها يزيد قليلًا على راحة اليد، وفي سطحها خطوط تقطعها

مساحة ملساء عند الوسط. لمع طرف منها حين مال المصباح، أما بقية السطح فابتلع الضوء.

اقترب رائف حتى صار يستطيع أن يمد يده إليها، ثم توقف.

«تسمح؟»

رفعها مِهراز ووضعها على قماش فوق المنضدة. حرك المصباح إلى اليسار، فظهرت في الحافة السفلى نقرة صغيرة.

مرر رائف إصبعه فوق الخط الأول. أبطأ عند تقاطعه مع الثاني، ورفع يده ليرى السطح من زاوية أخرى. انتظر نائل أن يقول شيئًا. كان يعرف هذه الوقفة؛ رآها حين قرأ رائف موضعًا مُحي منه خط، وحين فرّق بين كتابة كانت في أصل الورقة وأخرى جاءت بعدها.

قال مِهراز:

«ما الذي تراه؟»

«أحتاج أن أرى ظهرها.»

قلبها الحافظ فوق القماش. في الظهر ثقب واحد، تحيط به آثار احتكاك قديم. نظر رائف إلى القاعدة التي كانت تحملها، ثم طلب أن يقربها منه.

وضعتها سدرا على طرف المنضدة. فحصت الحجر الذي صنعت منه، وأزاحت بإبهامها غبارًا متجمعًا عند الحافة. تحت موضع التثبيت الجديد نسبيًا ظهر أثر موضعين أقدم، طُمسا بمعجون جاف.

قالت:

«كانت تحمل شيئًا بقدمين.»

أجاب مِهراز:

«تبدلت القاعدة أكثر من مرة.»

«وهذه عُدّلت كي تحمل ثقبًا واحدًا.»

نظر إليها رائف، ثم أعاد أصابعه إلى ظهر القطعة. أغلق عينيه لحظة. حين فتحهما، طلب من نائل أن يمسك المصباح ثابتًا.

«الخطوط على الوجه نُقلت عن شيء آخر.»

قال الحافظ:

«كل نقش ينقله صانعه عن رسم.»

«هنا نقل موضع التآكل أيضًا.»

دلهم على النقرة في الحافة السفلى. في ضوء المصباح بدت جزءًا مهشمًا من الطرف. مرر رائف ظفره بمحاذاتها، ثم أشار إلى أخـدودين صـغيرين يخرجان منها.

«التآكل يدخل من الخارج. هذه نُحتت من الداخل إلى الحافة. انظر إلى نهاية القطع.»

انحنى مِهراز. استدعى عدسة من صندوقه، ووضعها بين الضوء والحجر. ناولها لسدرا بعد أن رأى الموضع. تفحصته طويلًا، ثم ردتها.

«أداة دقيقة. صاحبها أراد حافة مكسورة، وترك قعر الكسر منتظمًا.»

أعاد مِهراز القطعة إلى وجهها الأول.

«قد تكون رُممت.»

هز رائف رأسه قليلًا، كأنه يختبر الاحتمال قبل أن يقبله.

«لهذا أحتاج سجلها.»

أخرج الحافظ دفترًا من الرف الأقرب. فتحه على صفحة يحمل أعلاها رسم القطعة، وتحتها تواريخ فحص وخطوط بأسماء من تولوا الحفظ. تتبعه رائف بإصبعه حتى بلغ أقدم تاريخ في الدفتر.

«هذا نُقل عن غيره.»

«نعم. كلما ضعف ورق سجل نقلناه.»

«والأصل الذي نقلوا عنه؟»

«في الأرشيف.»

ترك رائف يده فوق الصفحة. سأل عن آخر مرة استُعمل فيها الأثر. قلب مِهراز عدة أوراق، ثم أعادها إلى الموضع الأول. قال إن المحفوظ عندهم سجلات حراسة وفحص، وإن وصف الاستعمال في دفاتر أقدم من هذه.

تحرك نائل إلى جانب رائف.

«هل هو الأثر؟»

نظر رائف إلى النقرة المصنوعة.

«أرى يدًا تقلد أثر يد أخرى. لا أستطيع أن أقول أكثر قبل أن أقارن السجل.»

شد نائل أصابعه فوق العصا. للحظة أحس أن الرحلة منذ القبر كلها انتهت عند هذه المنضدة؛ وصلوا إلى ما جاؤوا من أجله، وها هم يحتاجون إلى أن يثبتوا أنه هو. ترك يده، وسأل مِهراز عن الأرشيف.

غطى الحافظ القطعة، لكنه أخذ القاعدة معهم. طلب من الحارس أن يسجل وقت فتح الباب وأسماء الداخلين، ثم أملى عليه أن الأثر ما زال في موضع الحفظ.

في الغرفة الخارجية كان رجل ينتظر إذنه لنقل صناديق من جناح منخفض الرطوبة إلى جناح آخر. طلب منه مِهراز أن ينتظر حتى يراجع الأرقام. سمع نائل ضيقه في الرد، ثم رآه يستدرك ويسأل عن عدد الحمالين الذين أُرسلوا إلى المخازن العسكرية.

«نصفهم»، أجاب الرجل.

نظر الحافظ إلى الصناديق، واختار ثلاثة تُنقل أولًا. ثم قادهم إلى الأرشيف.

عند الباب توقف رائف.

كان موضع الجص المكشوف محاطًا بإطار خشبي بسيط يمنع أطراف الثياب من احتكاكه. على الأرض تحته بقع بيضاء علقت في فواصل البلاط، وبجواره منضدة عليها أوراق ورسوم جزئية للخطوط.

قال مِهراز:

«هذا الذي رآه رجال جروان.»

نظر نائل إلى النقوش. تذكر ما عرفه عن الوفد والمهلة، وعن الخطوط التي خرجت من تحت الجص فصارت سببًا يذكره الرجال وهم يدفعون المملكة نحو الحرب.

وضع الحافظ القاعدة على المنضدة.

«كل مرة طلبوا صورة أو تفسيرًا، بدأوا من هذا الجدار. ثم صاروا يطلبون ما وراء الباب.»

اقترب رائف حتى كاد يلمس الإطار.

«حين وجدت الخريطة خلف الجدار، ظننت أنني أخرجت ما أخفوه.»

أشار مِهراز إلى طرف خط يضيع تحت طبقة بيضاء.

«وأنا أزلت هذا القدر، فدخلت علينا مملكة كاملة تسأل من أعطاني حق إزالته.»

تحركت سدرا نحو الطبقة الباقية. أوقفت يدها قبل أن تلمسها، وسألت عن سماكتها. أجاب الحافظ بأنها تتغير من موضع إلى آخر، وأنه أمر العمال أن يوقفوا العمل عند أول تصدع رأوه.

فحصت الصدع من بعيد، ثم طلبت مصباحًا آخر. ظل رائف عند المنضدة، ينتظر الدفتر الأقدم.

جاء به أحد الكتبة ملفوفًا في جلد لين. جلس مِهراز ليفك أربطته بنفسه. كانت الصفحات قليلة، لكن طرفها لا يحتمل قلبًا سريعًا. وضع رائف يده قربها من غير أن يمسها، وقرأ ما انكشف.

في أول رسم قديم للقاعدة موضعان للتثبيت، والمسافة بينهما توافق الأثرين اللذين وجدتهما سدرا. وفي الهامش أمر بنقل الحامل إلى موضع العرض، وتحته يد أخرى تذكر تجهيز قطعة توافق الرسم.

طلب رائف من الكاتب صفحة الحساب المقابلة. بحث عنها الرجل بين الأوراق المرقمة، ثم قال إن الصفحة التصقت بظهر التي تليها. فصل مِهراز طرفها ببطء، فظهرت قائمتان صغيرتان، بوزنين متقاربين وتاريخ واحد.

قرأ رائف السطر مرتين.

«صنعوا قطعتين.»

قال مِهراز:

«أو أصلحوا قطعة وحاملها.»

أشار رائف إلى الرسم.

«الحامل محسوب هنا وحده. وهاتان لهما العرض نفسه. واحدة تسلّمها حافظ الموضع، والثانية أمر بها الملك.»

مد الحافظ إصبعه إلى العلامة في نهاية السطر، وتوقف قبل أن يمس الحبر. طلب ورقة أخرى من العهد نفسه، ليرى صيغة التسليم. انتظروا حتى جاء الكاتب بها. قارن العلامتين، ثم رفع بصره إلى القاعدة.

قال:

«أحضروا المحفوظ.»

عاد الحارس به ومعه رجل ثانٍ. رفع مِهراز القماش، ووضع القطعة بحيث تضيء النقرة المصنوعة. انتقل بنظره بين الرسم القديم وظهرها. كان الرسم يحدد موضع التثبيتين، أما القطعة التي يحرسها منذ تولى عمله فلها ثقب واحد في الوسط.

سأل رائف:

«ماذا تقرأ في خطوطها؟»

«أثر الصنعة يغطيها كلها. كل خدش صُنع ليُرى. والقاعدة أُجبرت على حملها بعد أن كانت تحمل أخرى.»

سكت الحافظ. أخذ القلم وكتب ملاحظة على ورقة منفصلة، ثم قرأها بصوت يسمعه رائف.

«اختلاف في التثبيت، ونقل مقصود للتلف، وقيد لقطعتين في تاريخ الانتقال.»

قال رائف:

«المحفوظ بديل.»

شعر نائل ببرودة تحت كفيه، مع أن الغرفة دافئة من المصابيح. فتح غلاف الختم قليلًا، ثم أغلقه من جديد. كان الجميع ينظر إلى القطعة، وأدرك أن إخراجه الآن لن يزيد شيئًا إلى الثقوب التي أمامهم.

طلب مِهراز من الكاتب أن يأتي بأردان.

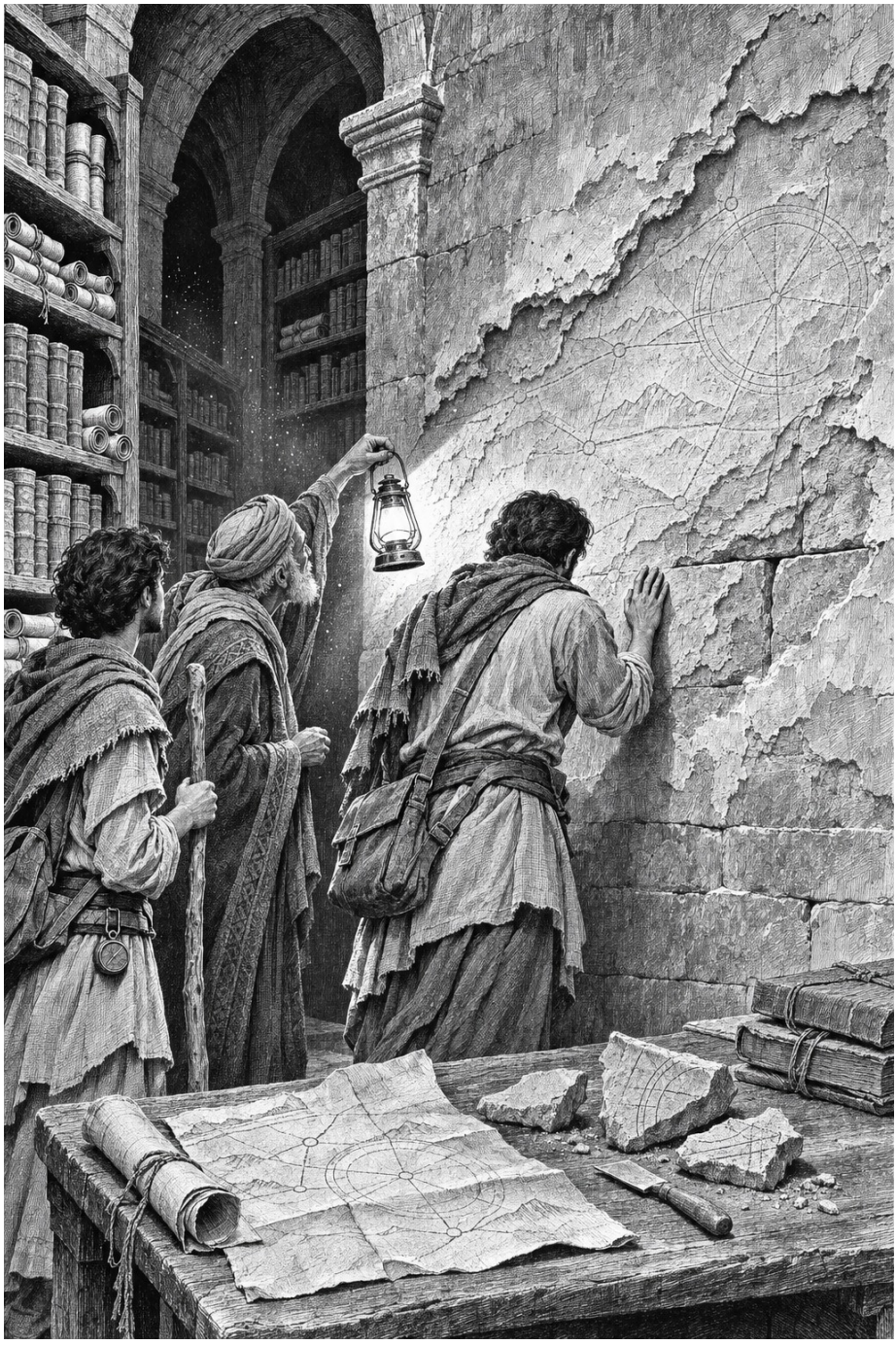

⁂

قرأ الملك الورقة التي كتبها الحافظ قبل أن ينظر إلى القطعة. أعاد القلم إلى جانبها، ثم طلب العدسة. حين رفعها لم تهتز يده، لكن نائل رأى كيف توقف طويلًا عند النقرة التي حسبها الجميع كسرًا قديمًا.

«من الذي أمر بالقطعة الثانية؟»

أراه مِهراز القيد والعلامة الملكية. كان من عهد قديم، قريب من البناء الذي حُفظت فيه أول السجلات. قلب أردان الصفحة بيده، ثم تركها حين رأى طرفها يتفتت.

قال:

«توارثنا حراسة الشيء الذي نراه.»

سأل عن احتمال أن يكون الأصل نُقل إلى خزينة أخرى. فتح الحافظ قائمة المواضع التي نُقلت إليها مقتنيات القصر في أزمنة مختلفة. مرر عليها إصبعه، وذكر ما يستطيع فحصه وما يحتاج إلى رجال يحملون الصناديق ويفتحون الأقبية.

رفع رائف الورقة التي كانت تحت صفحة الحساب. لم يكن فيها سوى سطرين من تعليمات تسليم قديمة، وقد ابتل نصف أحدهما ثم جف. قرأ الجزء الظاهر:

«تُحفظ الصورة حيث تُطلب... ويظل العمل في موضعه.»

طلب أردان أن يكررها.

قال مِهراز:

«قد يقصد عمل الصانع.»

رد رائف:

«في حساب الصانع يسمونه القطعة. هنا يفرق بين ما يُرى وما يعمل.»

نظر نائل إلى الجدار الذي خرجت خطوطه من الجص. تذكر كيف كانت أزال تريد الآثار معهم، وكيف اتجه رجالها إلى الأيدي قبل الجراب. قال:

«إذا طلب أحد القوة، وجد الصورة.»

رفع أردان عينيه إليه. لم يجب حتى أعاد النظر إلى العلامة في نهاية الأمر.

«ومن احتاج الأصل؟»

قال رائف:

«تركوا له شيئًا يصل إليه منه.»

التفت مِهراز إلى الجدار أيضًا. تحرك إلى إحدى الرسوم المنسوخة عن نقوشه، ووضعها قرب رسم القاعدة. ظل يقارن بينهما، ثم أخذ قطعة من ورق رقيق ووضعها فوق طرف من الخطوط.

كان هناك شكل صغير، حسبه الناس جزءًا من زينة الإطار. بعد نقله بالقلم ظهر خطان متوازيان بينهما المسافة نفسها تقريبًا التي بين موضعي التثبيت القديمين.

دفعه نحو سدرا.

«هل هذا حامل؟»

نظرت إلى القاعدة، ثم إلى الرسم.

«إن كان مرسومًا من جانبه، فهذه قدماه. وما تحته درجة.»

قرب رائف المصباح من النقش نفسه. ظهرت عند الطرف خطوط دقيقة لم تدخل في النسخة الأولى. مد يده نحوها، وتوقف حين بلغت ظل الإطار الخشبي.

قال مِهراز للكاتب:

«فك هذا الجانب.»

تراجع الرجل، يسأل بعينيه عن الإذن. وضع أردان كفه على المنضدة.

«تعملون بحضور الحافظ. وما يُزال يسجل قبل أن يمس.»

ثم التفت إلى مِهراز.

«أريد أن أعرف ما أخفاه سلفي، وأين وضعه. أما هذا، فأعيدوه إلى موضعه حتى تنتهوا.»

غطى الحارس البديل. أمره الملك أن يزيد عدد الواقفين عند الباب وأن يمنع نقل شيء من الغرفة إلا بإذنه. بعد خروجه جاء رسول يطلب أردان إلى مجلس الحدود. أخذ الملك الخريطة التي أحضرها معه، وترك إذن الأرشيف على الطاولة.

تقدم رائف إلى الجدار.

اقتلع الكاتب أول مسمار من الإطار، فمال الخشب نحو الجدار. أمسكه رفال قبل أن يحتك بالنقش، وانتظر حتى فك الرجل الطرف الآخر. كان عليه أن يرفع ذراعيه أكثر مما يحتمل، فطلب من نائل أن يأخذ عنه الجانب الأعلى.

أنزلاه معًا إلى الأرض.

ظهرت تحت الخشب حافة من الجص أفتح من بقية الطبقة. مررت سدرا إصبعها فوقها، وشمت المسحوق الذي علق به، ثم سألت مِهراز عن آخر ترميم.

قال إن الجزء المحيط بالإطار أُصلح بعد الكشف الأول، وإنهم تركوا ما فوق الخطوط كما وجدوه. دلها على أثر قديم عند الجانب المقابل؛ الموضع الذي توقف عنده العامل حين سمع تشققًا خلف السطح.

وضعت كفها على الجدار. أخرجت من جرابها إزميل عامل المحجر، وقلبته لتختار الطرف الأقل صدأ. طرقته بطرف خشبي خفيف، ثم أصغت.

قال نائل:

«ماذا وراءه؟»

«حجر متصل، وفراغ أعلى من موضعنا. الطبقة هنا منفصلة عنه.»

حددت بأثر إصبعها مربعًا صغيرًا إلى جوار النقش. شرحت لِمهراز كيف ستحرر حافته كيلا تشد معها ما بقي من الخط. أخذ الكاتب قياس الموضع، ثم بدأ رائف ينسخ شكل الشق قبل أن تمسه.

عملت سدرا ببطء. كلما تحررت قطعة، أعطتها إلى الكاتب ليرتبها على القماش حسب موضعها. وكان نائل يبدل مكان المصباح حتى ترى حد الأداة، ويرد يده حين تطلب منه ألا يقرب الضوء من وجهها.

في الخارج دخل رجال يحملون صندوقًا على عصوين. اصطدم طرفه بالباب، فارتج الجدار قليلًا. رفعت سدرا الإزميل فورًا، وانتظرت حتى استقر الحجر. خرج مِهراز وأمرهم أن يستعملوا الممر الآخر.

قال أحد الحمالين إن الممر الآخر ممتلئ بأكياس الجند.

«إذن تنتظرون حتى يُفرغ.»

رجع الحافظ وقد ارتفع صوته أكثر مما أراد. وقف قريبًا من سدرا، يراقب يديها. بعد قليل حمل القماش الذي تتجمع فيه القطع بدل الكاتب، وترك له تسجيل مواضعها.

خرج أول امتداد واضح للخط بعد ساعة من العمل. لم يتجه إلى المركز الذي يظهر في الرسم القديم. انحنى بمحاذاة ما يشبه جدارًا، ثم انتهى إلى علامتين متقابلتين، فوق إحداهما أثر خط ثالث طُمست نهايته.

نقل رائف الشكل إلى الورقة. وضع رسم القاعدة إلى جانبه، ثم عدل حجم النسخة حتى اقتربت النسب.

قال:

«هذه ليست علامة واحدة.»

نظر نائل إلى الخطين اللذين حسبهما قدمي الحامل. بعد انكشاف الامتداد صارا جزءًا من بناء ذي مستويين، أحدهما فوق الآخر، وبينهما فراغ ضيق. كانت القدمان في المستوى الأسفل.

أشار رائف إلى الطبقة التي رفعوها.

«الجص قطع الرسم هنا. الذي نسخ ما ظهر جعله ينتهي عند هذه النقطة.»

جاء مِهراز بصورة الكشف الأول. قارنها بما ظهر الآن، ثم وضعها فوق الورقة الجديدة. كان طرف الخط فعلًا يختفي في الموضع الذي صار إطارًا، فبدا كأنه حافة شكل مغلق.

سأل الحافظ سدرا إن كانت تستطيع إزالة مقدار آخر.

«إلى هذا الشق. بعدها نحتاج إلى دعامة من الأعلى.»

قال رائف:

«يكفينا الآن أن نعرف أين يذهب.»

نهض مِهراز إلى الرف المقابل، وأخرج سجلًا لأعمال البناء في الجناح القديم. حمل معه رسمًا لجدران القصر الداخلية، وتوقف أمامهما باحثًا عن موضع يتسع لكليهما. أزال نائل منضدة صغيرة من الطريق، وفرش رفال فوقها قماشًا نظيفًا.

على رسم البناء درج قديم أُغلق عند توسيع الجناح. لم يكن موقعه واضحًا بالنسبة إلى الأرض الحالية، لأن الساحة ارتفعت بعد الرصف. وفي سجل العمل إشارة إلى قناة تمر تحت الدرج وتحمل ماء المطر نحو خزان منخفض.

قالت إيسا من مقعدها:

«أروني القناة.»

أدار رائف الورقة إليها. مدت يدها السليمة، وتتبعت العلامات التي وضعها الناسخ للماء.

«هذه تصب إلى هنا. فإذا كان الرسم كما تقولون، فهذا الجانب أوطأ.»

قال مِهراز:

«الساحة الآن مستوية تقريبًا.»

«أين يذهب الماء حين تمطر؟»

فكر، ثم استدعى الكاتب وسأله. أجاب الرجل أن بعضه يُجمع في خزان للخدمة، وبعضه يخرج من فتحة عند الممر المنخفض. يعرف ذلك لأنهم يرفعون الصناديق من أرض الأرشيف حين تتأخر الصيانة.

وضعت إيسا نقطة عند الفتحة. طلبت لونًا آخر للقلم، فأعطاها رائف قطعة فحم رقيقة، وحددت بها الانحدار الذي تحتاجه القناة كي تعمل.

بجانب شكل الدرج ظهرت علامة صغيرة، دائرة لم يكتمل طرفها. كانت تحت جزء من الجص الذي أزالته سدرا قبل قليل، ولم يدخلها رائف في النسخة بعد.

لاحظها حين عاد إلى الجدار. مرر القلم فوق ورقته، وتوقف عند الفجوة.

قال:

«هذه رأيناها.»

كانت إيسا تنظر إلى النقطة التي وضعتها للقناة. رفعت رأسها، ثم سحبت قدمها من تحت المقعد ونهضت. احتكت الحمالة بحافة المنضدة، فانقلبت قطعة الفحم وسقطت.

انحنت لتلتقطها، لكنها توقفت في منتصف الحركة. مدت يدها إلى خشب المنضدة، واستقامت وهي تنظر إلى الجدار.

اقترب نائل.

«إيسا؟»

أشارت إلى العلامة.

«أكمل ما حولها.»

ظن رائف أنها تخاطبه، فتابع النسخ. قالت مرة أخرى، بصوت أخفض:

«حولها فقط.»

أوقف القلم قبل أن يصل إلى الفجوة، ونظر إليها. مدت إصبعها فوق الورقة من غير أن تلمس الحبر. بدأت من جهة، وسارت بمحاذاة الدائرة، ثم توقفت عند الانقطاع. بقي إصبعها معلقًا هناك.

رأى نائل انقباض فكها. كانت تفعل الحركة نفسها مرة أخرى، أبطأ، وكأن يدًا أخرى تقود إصبعها إلى الموضع الذي يتوقف عنده.

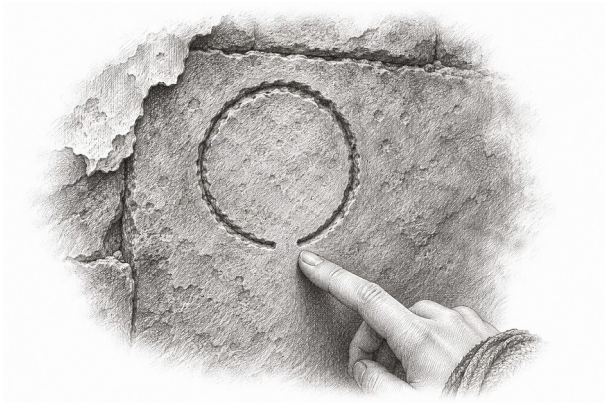

قال مِهراز:

«تعرفينها؟»

ردت يدها إلى صدرها.

«أحتاج أن أتأكد.»

سألها إن كانت في كتاب أو نقش رأته في ميرازا، فهزت رأسها. أخذت نسخة رائف بعد أن جف الحبر، وطوتها بحيث تظل العلامة وحدها ظاهرة.

«أحتفظ بهذه قليلًا؟»

أعطاها إياها. جلست من جديد، لكن عينيها بقيتا على الثنية التي أخفت بقية الرسم.

عاد مِهراز إلى سجل البناء. عند أسفل الصفحة سطر عن إغلاق درج الخدمة وتحويل الماء إلى فتحة أخرى. كان تاريخ العمل قريبًا من تاريخ نقل القاعدة. وضع رائف ورقة الحساب بجانبه، وأشار إلى التشابه في اليد التي كتبت الأمرين.

قال الحافظ:

«الناسخ نفسه.»

«والأسبوع نفسه.»

رفع مِهراز الورقة إلى الضوء ليرى الرقم الباهت. طلب دفترًا من الرف الأعلى، فقام رفال قبل أن يستدعي الكاتب. صعد درجتين من السلم ثم توقف، واختبر ثباته بيده. ناوله الرجل الدفتر، وأعاد رفال قدمه إلى الأرض بحذر.

في الدفتر قائمة حجارة ومواد أُرسلت إلى الممر المنخفض، وأجر عاملين لإعادة تثبيت حاجز. مر رائف على الأسماء، ثم أشار إلى مقدار المعدن المستعمل.

«هذا يكفي لقفل أكبر من باب الدرج.»

قال مِهراز:

«أو لبابين.»

أجاب نائل:

«باب نراه، وآخر تحته.»

لم يوافقه رائف فورًا. وضع علامتين على الورقة، وكتب عند الثانية سؤالًا. ثم طلب أن يذهبوا إلى الساحة ليروا موضع الدرج قبل أن يضيفوا إليه شيئًا آخر.

رفع مِهراز بصره إلى النوافذ. كان الضوء قد انخفض، وما زالت الصناديق تمر في الممر البعيد.

«في الصباح. سأطلب أن يفرغوا المكان الليلة.»

جمع الأوراق التي سيحتاجونها، وأبقى كشف الحساب على منضدته. قبل أن يخرج، عاد إلى الجدار ووضع يده على إطار الخشب المفكوك. طلب أن يُترك على الأرض، وأن يُغلق الباب بعد خروج آخرهم.

⁂

في الغرفة التي خصصتها لهم سيراي، وضعت إيسا الورقة على المقعد ولم تجلس.

كان رفال قد ذهب مع المعالج ليغير رباطًا في كفه، ونيرفا عند القادة تسأل عن المعبر الذي جاء منه الكشافان. بقي رائف وسدرا عند النافذة، يقارنان رسم الدرج بما وصفه الكاتب. دخل نائل ووضع قربته قرب الباب.

قالت إيسا:

«أرني الختم.»

نظر إلى الورقة أولًا. رأى العلامة مكشوفة في وسط الطية، ثم رفع عينه إليها. كانت يدها السليمة تضغط على ظهر المقعد، حتى ابيض الموضع بين الإبهام والسبابة.

أغلق الباب، وأخرج الغلاف.

وضعت إيسا القماش الذي لف فيه الختم فوق المقعد قبل أن يمده. انتظرت حتى انكشفت العلامة، ثم سحبت الورقة إلى جانبه. أبقت أصابعها على الورقة. حركت الورقة قليلًا حتى صار الانقطاع في الجهة نفسها.

أخذت نفسًا من فمها.

قالت:

«كان يتوقف هنا.»

اقترب رائف.

«أبوك؟»

أجابت بإشارة صغيرة. مررت إصبعها فوق الورق، وعند الفجوة توقفت. أعادت الحركة، هذه المرة بدأت من بعيد، وتركت إصبعها يرتجف قليلًا قبل أن يبلغ الحافة.

«كل مرة. إذا أعطيته مكانًا أوسع، يدور أبعد، ثم يتوقف في الموضع نفسه.»

انحنت حتى كاد وجهها يمس الورقة. تحركت حمالتها، فشد الألم كتفها. استقامت فجأة، وضربت ركبتها بطرف المقعد. مد نائل يده، فأمسكت ساعده بدل أن تمسك الختم.

ظل واقفًا حتى أعادت يدها إلى ظهر المقعد.

قالت:

«كنت أحاول أن أجعله يكملها.»

لم يسألها كيف. رأى إصبعها يرسم المسافة الناقصة في الهواء، ثم يهبط إلى جانبها.

من النافذة جاء صوت بائع ينادي على ما تبقى معه من الخبز. التفتت إيسا إلى الصوت لحظة، كأنها تبحث عن وجهه بين وجوه بعيدة، ثم أعادت نظرها إلى نائل.

كان يعرف ما تعنيه حركة صغيرة يفعلها رجل غائب حتى تصير اليد التي تفعلها هي كل ما يتذكره في لحظة واحدة. نظر إليها، ورأى أنها انتبهت إلى البوصلة عند حزامه. بقيت عيناها هناك مقدار نفس، ثم عادتا إلى وجهه.

ترك الختم على القماش.

قال رائف:

«وصف الناجي دائرة ينقطع خطها عند جهة واحدة.»

رفعت إيسا رأسها إليه.

«وفي باب السفينة شق أسفل الدائرة. رأيته، ولم أعرف لماذا أعرف موضعه.»

حركت الورقة إلى أسفل قليلًا، فظهرت العلامتان متجاورتين.

«هذا الذي كان يرسمه.»

جلست أخيرًا. وضعت يدها المصابة في وضع أريح، ومدت الأخرى إلى النسخة. لمس إصبعها الورق هذه المرة، واستقر عند الخط الذي يسبق الانقطاع.

سألت نائل:

«هل يمكن أن يكون رأى الختم نفسه؟»

نظر إلى الأداة بينهما، وإلى العلامة التي عرفها في قفل السفينة وفي مواضع من الطرق.

«رأيناها على أكثر من شيء.»

قال رائف:

«نستطيع أن نعرف أين تكررت. قد نجد موضعًا يوافق ما وصفه الناجي.»

أعادت إيسا الورقة إلى الطية. كانت الحركة التي خرجت بها من الأرشيف أسرع من هذه. ضغطت الحافة بعناية، ثم طلبت من رائف أن يكتب خلفها موضع العثور عليها وتاريخ اليوم.

كتب اسم الأرشيف، وحدد جانب الجدار الذي ظهرت فيه. انتظر حتى جف الحبر قبل أن يعيدها إليها.

وضعتها في جرابها الصغير. أغلقت الرباط، ثم فتحته مرة أخرى لتتأكد أن الورقة لم تنثنِ عند موضع الدائرة. تابع نائل يدها حتى أغلقت الجراب من جديد.

أعاد الختم إلى غلافه.

دخل المعالج مع رفال بعد ذلك، يحمل رباطًا آخر لإيسا. رفع رائف الأوراق عن المقعد لتجلس حيث يصل الضوء. سألها الرجل عمّا جعل الكتف يشتد في المساء، فقالت إنها تحركت بسرعة.

حين فك الرباط، ظلت تنظر إلى جرابها الصغير عند قدميها.

⁂

جاءت نيرفا بعد أن خفتت الأصوات في الساحة. دخلت تحمل خبرًا عن القوافل التي رجعت من الحدود، وعن درب جانبي صار الحرس يفتحونه للمؤن قبل العربات الأخرى. أعطت رائف أسماء موضعين يمكن أن يسألا عنهما إذا احتاجوا إلى الخروج شرقًا.

رفع رأسه من الرسم.

«تظنين أننا سنحتاج إلى ذلك قريبًا؟»

«أظن أننا نحتاج أن نعرفه قبل أن تُغلق الأبواب.»

سألت نائل عما وصلوا إليه. ذكر اختلاف القطعة المحفوظة، والقيد الذي وجدوه، وموضع الدرج الذي سيفحصونه في الصباح. أصغت، ثم طلبت أن ترى الرسم.

أراها مداخل الساحة، والممر الذي يجري فيه الماء. حددت موضعًا يمكن أن يقف فيه اثنان لحراسة العاملين، وسألت إن كان الحافظ سيحضر بنفسه. قال نعم، وإن معهم رجالًا من القصر.

«من يعرف الطريق يدخل أولًا»، قالت. «ومعنا من يحمل المصباح إذا احتجت إلى يديك.»

خفض نائل عينه إلى البوصلة، ثم أعادها إلى الورقة.

«رائف.»

نظر رائف إلى نيرفا، ثم جمع الأوراق بالترتيب الذي سيحتاجه.

في آخر الليل جاء دارِن يخبر نائل أن الرسول غادر إلى قاسران، وأن الرد يصلهم عبر مِهراز إن رحلوا قبل عودته. تبع نائل دارِن إلى باب الأرشيف، حيث كان العمال يفرغون الممر المنخفض لفحص الصباح. وقفت سيراي قرب رائف تنظر إلى الفراغ الذي تركه في نسخة الجدار؛ أراها موضع الجص الذي يحجب بقية الخط، فقالت: «إذن اكتبوا أنه مغطى». كتبها في الهامش، وحمل الرسم معه. عاد نائل إلى غرفتهم، فوجد على المقعد عند النافذة قطعة القماش التي بقيت من متاع أوران. أخذها ليطويها، فوجدها مطوية أصلًا. وضعها في الجراب، وأطفأ المصباح الأخير.

⁂

في الصباح كانت الساحة القديمة أصغر مما بدت في الرسم.

أحاطت بها أبنية أضيفت في أزمنة مختلفة، حتى صار أحد جدرانها جزءًا من مخزن، واختفى جانب آخر خلف درج واسع يصعد إلى القصر. في الوسط حجارة رصف جديدة نسبيًا، وعند الحافة بقعة منخفضة تجمع فيها ماء غسل الأرض.

وقف مِهراز قرب باب غُطي نصفه بألواح خشبية. أشار إلى القائم الحجري الذي يظهر بينها.

«درج الخدمة كان هنا. الذي نراه الآن سدوا به أعلاه حين رفعوا الساحة.»

سار رائف بمحاذاة الجدار، يقارن مواضع الفتحات بما نسخوه. وضع الورقة على صندوق أفرغه الحمالون، وثبتها بحجرين. أعطى نائل نسخة أصغر، وترك الأصل عند الحافظ.

رفعت سدرا أول لوح عن الباب بمساعدة أحد العمال. خلفه سطح حجري يحمل أثر قوس مسدود. مررت كفها فوقه، وتوقفت عند خط يفصل بين لونين من البناء.

أخرج نائل البوصلة. سوّاها على كفه وانتظر. اتجهت الإبرة نحو الباب، مائلة قليلًا إلى الجانب الذي رسم فيه رائف موضع الحامل.

قال:

«هناك اتصال في هذه الجهة.»

اقترب من القائم ووضع طرف العصا عند حافته. أحس باستجابة خفيفة تحت يده؛ امتداد قديم يتحرك إحساسه به حين يثبت قدمه في موضع ويبتعد حين ينقلها. رفع عينه إلى القوس المسدود، ثم إلى الرسم.

«قد يكون خلفه.»

سألته سدرا أن ينتظر. جثت عند القاعدة، ونزعت طبقة من التراب المتجمع في زاوية الباب. ظهر حجر أفقي يربط القائمين، متصل بما خلفه.

«هذا يمسك الجدار الذي فوقنا.»

أشار نائل إلى الخط في الورقة.

«وفي الرسم يمر الطريق من هنا.»

وضعت إصبعها عند العلامة التي حسبوها درجة.

«من هذا الجانب، نعم. لكن أي مستوى؟»

لم يجبه الرسم. كان الناسخ قد وضع البناء العلوي والسفلي فوق بعضهما، وقطع الجص جزءًا من الخط الواصل بينهما. نظر نائل إلى قدمه؛ تحتها رصف لم يكن موجودًا حين رُسم الطريق.

رفع العصا عن الحجر. لم يحاول مرة أخرى.

من الجهة الأخرى سأل العامل إن كانوا يريدون إزالة أول صف من السد، فأجابه مِهراز أن ينتظر إشارة سدرا. بقي الرجل ممسكًا بالمطرقة، يتحول بها من يد إلى أخرى.

قال رائف:

«هل تتبع البوصلة هذا الباب، أم ما وراءه؟»

نظر نائل إلى الغطاء المفتوح في يده. رأى حافة المعدن التي صقلتها أصابع أوران، والخدش الذي بقي فيها بعد المخاضة. كان قد نظفها، لكن طرف الخدش ظل داكنًا.

«لا تطلب من الإبرة جوابًا لا تعطيه».

جاءته الجملة كما سمعها عند الجبل. رأى الحجر الصغير الذي وضعه أوران عند حذائه، ثم المسافة التي طلب منه أن يتحركها. نظر إلى الباب مرة أخرى. كان قد جمع موافقة الرسم واستجابة الإبرة في موضع واحد، وأعطاهما اسم المدخل قبل أن يفحص ما بينهما.

أغلق غطاء البوصلة نصف إغلاق ليمشي، ثم فتحه عند الجانب الآخر من الساحة.

قال لرائف:

«ارسم موضعي الأول.»

أشار له إلى الحجر الذي وقف عليه، وانتظر حتى وضع علامته. مد البوصلة على راحته، وسواها حتى هدأت الإبرة. اتجاهها الآن يمر تحت طرف الدرج الواسع، ويترك الباب القديم إلى اليسار.

رسم رائف الخط الثاني.

انتقل نائل إلى قرب المخزن. اضطر العامل أن يزيح حزمة خشب ليفسح له موضعًا، فحملها رفال معه إلى الحائط. استقرت الإبرة للمرة الثالثة، ورأى نائل أنها تتبع امتدادًا خلف الجدار، لا نقطة واحدة في سطحه.

قال:

«الطريق ينزل من جهة القناة.»

كانت إيسا قد ابتعدت عنهم إلى البقعة التي تجمع فيها الماء. انحنت، وأزاحت بقدمها قطعة قماش سدت شقًّا بين الرصف. بدأ الماء يدخل فيه بخيط رفيع.

«هل كان هذا المكان يُغسل إلى هذه الجهة دائمًا؟» سألت العامل.

قال إنه لا يعرف إلا الساحة على حالها. أشار مِهراز إلى الرجل الأكبر عند الباب، فأقبل وأجاب أنهم كانوا يستعملون فتحة أسفل المخزن، ثم أُغلقت حين وُضعت الصناديق على طول الجدار.

سأله رائف عن مكانها بالضبط. حمل الرجل المصباح وقادهم إلى ممر ضيق ينخفض بدرجتين. كان طرفه رطبًا، وعلى الجدار خط داكن يمتد فوق مستوى القدم.

قالت إيسا:

«الماء يقف هنا.»

وضع الرجل المصباح على حجر، وأراهم موضع الفتحة تحت رف خشبي. نزع رفال ما فوقه، وأبعده بمساعدة العامل. ظهرت شبكة صغيرة سدها طين قديم وقطع قش.

أدخلت إيسا إصبعها بين قضيبين. أحست بحركة الماء من الناحية الأخرى، وسحبت يدها.

«له مخرج أوطأ. هذه ليست نهايته.»

أخذت سدرا مكانها. وضعت الإزميل عند الحجر الذي يحيط بالشبكة، وضغطت برفق. سقطت قشرة من المونة الحديثة، وانكشف طرف عتبة قديمة تمتد إلى الجانبين أبعد من الفتحة الحالية.

أقبل مِهراز بالرسم. كان يحمل الورقة من طرفها حتى لا يمسها الماء. طلب من العامل أن يرفع المصباح قليلًا، ثم نظر إلى القائمين اللذين بدأت سدرا تكشفهما.

على أحدهما حفرتان صغيرتان متقابلتان. نقل رائف المسافة بينهما إلى قطعة حبل، وعاد بها إلى القاعدة التي أحضروها من موضع الحفظ. حين وضعها فوق أثر القدمين، تطابق المقدار.

قال الحافظ:

«كان الحامل يمر من هنا.»

قالت سدرا:

«أو شيء يوافق عرضه. نحتاج أن نرى أسفل العتبة.»

أعاد نائل البوصلة إلى جيبه. جثا عند الجدار، ووضع كفه فوق الموضع الذي اختارته. هذه المرة شعر بالاتصال من جهة أخفض، بعيدًا عن القوس الذي جربه أولًا. مر طرف العصا بمحاذاة الحافة، واستقر عند شق لا يزيد على أثر ظفر.

أومأت سدرا إلى العامل أن يبتعد قليلًا. وضعت قضيبها تحت الشبكة، وطلبت من نائل أن يثبت الحافة بينما تُخرج المونة التي أضيفت إليها. اشتغل معها الرجل بالإزميل، وكانت إيسا تجمع الماء القريب في الجهة الأخرى كي تبقى أيديهما قادرتين على العمل.

تحرك الحجر الأول أسرع مما توقعوا.

انفتح وراءه فراغ، واندفع منه ماء أسود حمل رائحة طين راكد. ارتد العامل إلى الخلف، وانطفأ المصباح الموضوع عند قدمه. أمسك نائل العصا بكلتا يديه حين أحس بطرف الحافة يهبط.

صاحت سدرا:

«اترك لي الحجر. أمسك الخط فقط.»

خفف ضغطه، فوجد موضع الاتصال يعود إلى يده بعد أن ضاع تحت ثقل الكتلة. رفعت سدرا طرف الحجر بقضيبها، ودفع رفال تحته قطعة خشب من الرف المفكوك. انحشر الخشب، واستقرت الحافة.

جذبت نيرفا العامل من ردائه حتى خرج من الماء. وقفت في أعلى الدرجتين، وطلبت أن يبعدوا الصناديق الأخرى قبل أن يبتل ما فيها. أسرع رجلان إلى الرف المقابل، وحملا أول صندوق إلى الساحة.

إيسا رفعت يدها.

«لا تغلقوا الفتحة. الماء سيعود إلى الداخل.»

قال مِهراز:

«ما الذي يحتاجه؟»

أشارت إلى المجرى الضيق عند قدميه.

«افتحوا له هذا الطرف.»

انحنى العامل الأكبر ومعه رفال. نزعا الطين من بين حجرين، وانطلق الماء إلى شق تحت أرض الساحة. استمر يتدفق، ثم أخذ منسوبه ينخفض في الممر. حين استقام التيار في المجرى، أرخت إيسا يدها وأسندتها إلى حافة الباب.

نظر إليها نائل. كان وجهها شاحبًا.

«يكفي؟»

«دعوه يجري.»

عاد ينظر إلى العصا. كان كتفه قد بدأ يؤلمه. قال لسدرا إنه يحتاج إلى أن يترك الاتصال، ففحصت الخشبة والحجر، ثم طلبت من العامل دعامة ثانية. انتظر حتى وضعها، وبعد إشارة منها سحب العصا ببطء.

ظل الحجر في موضعه.

جلس على الدرجة العليا، يفتح أصابع يده ويغلقها. بجانبه جلست إيسا، وقد بلل الماء طرف ثوبها. لم يتكلما. كانت تراقب حركة التيار، وكان يراقبها ليرى إن كانت تحتاج إلى أن تستند أكثر.

في أسفل الممر رفع رائف المصباح الذي بقي مشتعلًا. أضاء به الفتحة بعد أن انخفض الماء، فرأوا خلف الشبكة القديمة درجات تنزل إلى الظل.

الدرجة الأولى عريضة، والثانية تكاد تختفي تحت الطين. وعلى الجدار المقابل خط أفقي، يتبعه انكسار قصير في الجهة نفسها التي ظهرت في النقش.

دعا مِهراز إلى النظر.

دخل الحافظ أولًا إلى العتبة، ثم طلب أن يمسك رائف المصباح من جهة أخرى. فتح الرسم على ركبته، وراح يقارنه بما يظهر. نقل إصبعه من الخط إلى الدرجتين، ثم رفعه إلى موضع في الفراغ تحت الجدار.

«الطبقة العليا غطت هذا المستوى كله.»

قال رائف:

«قرأناه كأنه أمامنا.»

رفع الحافظ الورقة، وثناها عند خط يفصل بين المستويين. حين استقامت الزاوية، صار الطريق الذي يلتف خلف الدرج أوضح. أراه لنائل.

وقف الشاب ونزل إلى العتبة. تحت السواد الرطب كان يرى الآن حافة ثالثة، وراءها ممر ينعطف إلى الجانب الذي اتبعته البوصلة. وضع يده على القائم، وأحس بالاتصال يتقدم بعيدًا ثم يختفي تحت كتلة عريضة.

قال:

«يمكنني تتبع هذا القدر. ما بعده محجوب.»

سأله مِهراز إن كان يستطيع فتحه.

نظر نائل إلى الماء الذي ما زال يجري تحت الخشبة، ثم إلى سدرا التي كانت تفحص موضع الحمل فوق العتبة.

«نرى ما يحمله أولًا.»

تحركت شفتا رائف كأنه كاد يقول شيئًا، ثم عاد إلى الرسم. جمع أطرافه ورفعه إلى مكان جاف.

⁂

احتاجوا إلى ساعات من العمل حتى صار النزول مأمونًا لثلاثة.

جاء نجار من رجال الصيانة، يحمل خشبًا لم تُستعمل أطرافه بعد. قصه على قياس العتبة كما طلبت سدرا، وثبت دعامتين تصلان إلى الحجر السليم وراء المونة. وقف مِهراز معه، يناوله الأدوات التي يعرف أسماءها ويتنحى حين يطلب منه الرجل موضعًا ليده.

عند الظهيرة حملت سيراي الطعام إلى غرفة قريبة مع إحدى العاملات. صعد نائل من الممر، فتنحت عن طريقه ونظرت إلى الطين على يديه.

«حين يصلنا خبر من سايرن، يعرف دارِن أين يجدكم.»

رفع رأسه وشكرها. أخذت وعاءً من الصينية ووضعته على المقعد، ثم انتظرت حتى جلس.

سلّم مِهراز سجل الحساب إلى الكاتب ليحفظه في الغرفة العليا، وأبقى النسخة الجديدة مع رائف.

نزل نائل ورائف ومِهراز بعد أن ثبت النجار الدرجة الأولى بلوح عريض. بقيت سدرا عند العتبة لتراقب حركة الدعامات، ونيرفا عند باب الساحة تُبعد من جاءوا ليروا ما يجري. جلس رفال قربها يحمل الحبل الذي ربطوه بأول دعامة، وتولت إيسا متابعة خروج الماء إلى المجرى المفتوح.

في الأسفل كانت الجدران أقرب مما توقع نائل. اضطر أن يدير كتفه ليمر من أول انحناء. حمل رائف المصباح أمامه، ومشى مِهراز خلفهما بيد على الحجر وأخرى تضم الرسم.

على الجدار خط داكن يتجاوز مستوى الرأس. سأل نائل عن سببه، فأجابه رائف بأن الماء وقف هنا زمنًا طويلًا. لكنه رأى فوقه أثر نقش، فرفع المصباح. ظهرت العلامة نفسها التي وجدوها في سجل تجهيز القطعتين، محفورة في حجر العتب عند موضع انعطاف الممر.

مد مِهراز الورقة. وضع النسخة الصغيرة قرب الحجر، وقارن طول الساقين اللتين تتفرعان من العلامة. كانت إحداهما أقصر في الموضعين.

قال:

«هو العمل الذي دُفع أجره في ذلك القيد.»

انحنى رائف إلى الجدار التالي. حك بإبهامه طبقة رقيقة من الوحل، فظهر خطان متوازيان يقطعان سطح الحجر. أضاءهما من الجانب، ثم طلب من نائل أن يلمس ما بينهما.

أحس بانخفاض ضئيل، كأن شيئًا ثقيلًا مر فوق الموضع مرات ثم استقر بعيدًا. تتبع الخطين إلى الأرض، حيث ينتهيان عند لوح عريض يغلق ممرًا أدنى.

في أعلى اللوح ثقب صغير سدته ترسبات. أدخل رائف عودًا رقيقًا، ونزع ما في طرفه. عبر منه هواء أبرد، وحرك اللهب الذي قربه نائل.

مال الحافظ ليرى. كان وراء الثقب فراغ لا يصل إليه ضوء المصباح بسهولة. غير نائل زاويته، فظهر على الجانب البعيد طرف قاعدة حجرية، وفي سطحها موضعان بارزان.

أخرج رائف الحبل الذي أخذ به القياس، لكنه لم يستطع أن يمده إلى الداخل. اكتفى أن يقارن البعدين بعرض فتحة العتب المنقوشة في الرسم، ثم رفع الورقة نحو الضوء.

قال:

«هذا الموضع.»

سأله نائل:

«ترى الأثر؟»

«أرى الحامل القديم. ما فوقه وراء الحافة.»

أراد نائل أن يقرب الختم من اللوح. مد يده إلى غلافه، ثم نظر إلى مِهراز. كان الحافظ يراقب الماء الذي يظهر من شق عند الأسفل.

«هذه الحجرة أخفض من الممر. إن رفعنا حاجزها الآن، جاء ما فيها إلى الدرج.»

صعد رائف إلى العتبة ليطلب سدرا. نزلت بعد أن أخذ النجار مكانها عند الدعامات، وجثت قرب اللوح. وضعت يدها على أحد جانبيه، وعلى الآخر مرة ثانية، ثم تتبعت السقف حتى موضع يختفي في العتمة.

«اللوح يحمل شيئًا من الجانب. والماء يضغط من خلفه.»

أشارت إلى تجويف صغير أسفل الجدار.

«هناك مجرى مسدود. نفتح له طريقًا قبل أن نحرك هذا.»

قال مِهراز إن سجل البناء يذكر حاجزًا ثانيًا لتنظيم الماء. أخرج رائف النسخة التي تركها في جيبه الأعلى، وأراها له. تقابل السطر الذي حسبوه قفلين مع الشق الذي عند الأرض.

طلب الحافظ أن يعودوا إلى الساحة. كان عليهم أن يعرفوا أين ينتهي المجرى قبل أن يدفعوا إليه ما تجمع في الحجرة.

وقف نائل آخرهم عند العتبة السفلى. قرب البوصلة، فاستقرت الإبرة نحو الممر المحجوب خلف اللوح. أغلقها، ووضع كفه على الحجر الذي وجدوه بعد أن تركوا الباب الأعلى.

ثم صعد وراء رفاقه.

⁂

كان أردان ينتظر في الغرفة المطلة على الساحة، ومعه ضابط يحمل خوذته تحت ذراعه. وقف دارِن قرب النافذة، وفوق الطاولة ورقة لم تكن بين أوراق البحث في الصباح.

دخل مِهراز، وقبل أن يفتح الرسم قال الملك:

«تحركت مقدمتهم.»

أنزل الحافظ يده.

أشار أردان إلى الضابط. قال الرجل إن الحشد الذي رصده الكشافة ترك بعض عربات المؤن في الخلف، وتقدم إلى الموضع الذي ظنوا أنه سيبلغه بعد أيام. مر رسول جاء من الغرب بمعسكر القيادة قبيل الحركة. شاهده أحد المراقبين يدخل، ثم رأى القادة يُستدعون، ولم تمض ساعات حتى بدأت الخيام تُطوى.

سألت نيرفا عن الطريق الذي اختاروه، فأراه الضابط على الورقة. لم يتجهوا إلى المعبر الأوسع؛ تقدموا من ممر يتيح قطع وصول العربات إلى المدينة من ناحية أخرى.

قالت:

«يريدون أن يجعلوا المخازن في الداخل تعمل قبل أن يصل جيشهم كله.»

أجاب أردان:

«ولهذا خرج الرجال إلى البوابة. أحتاج إلى طريق المؤن، وإلى ما يمكن أن نفعله بالأثر الذي نحفظه.»

رفع مِهراز الرسم، ووضعه قرب الخريطة العسكرية.

«وصلنا إلى حجرة الحفظ القديمة. وجدنا علامة العمل والحامل. الحاجز يحتاج إلى تفريغ الماء وتدعيم جانبه قبل أن نرفعه.»

سأل الملك عن الوقت. أجابت سدرا بما تستطيع أن تعد به: فحص المجرى هذه الليلة، ثم فتحه على مراحل إذا كان مصبه خارج البناء. يحتاج العمل إلى النجار ورجلين يعرفان الصيانة. أما اللوح فلا يُرفع حتى تتأكد من أن الحمل انتقل إلى الدعامة.

نظر أردان إلى الضابط. كان الرجل ينتظر الرجال أنفسهم ليصلحوا حاجزًا عند البوابة.

قال مِهراز:

«أرسل معك عمال نقل الصناديق. النجار يبقى هنا.»

هز الضابط رأسه.

«أحتاج من يعرف العوارض، لا من يحملها فقط.»

استمع الملك حتى حددا ما يحتاجه كل موضع. ثم أمر أن يعمل أحد النجارين عند البوابة، وأن يبقى الآخر معهم حتى رفع اللوح، ويذهب إليه رجلان من عمال الماء. يفتح الحرس لهم الممر إلى المصب ويمنعون إدخال حمولة جديدة إليه.

كان القرار صغيرًا على الخريطة، لكنه أخذ من كل جهة يدًا كانت تحتاجها.

سأل نائل:

«وإذا خرج الأصل؟»

نظر إليه أردان.

«نفحصه، ونعرف كيف يُحمل. وعدتك بالمساعدة، وما زلت عنده. لكنني أريد أن أرى ما أضعه في يدك.»

قال رائف:

«وفي يدي.»

التفت إليه الملك. كان رائف قد وقف طوال اللقاء إلى جانب الحافظ، يحمل نسخة تحمل آثار الماء من أطرافها. رفعها قليلًا، ثم أنزلها.

«أنا الذي سأحمله، إن استطعنا الوصول إليه.»

تأمله أردان، وأشار إلى مِهراز.

«إذن تبدأ معه الآن، بما يستطيع أن يعلمك إياه قبل أن نفتح الحجرة.»

انصرف الضابط بأمر الرجال، وتبعه دارِن إلى الممر. بقيت سيراي عند الطاولة لحظة ترتب أوراق الحدود فوق بعضها. رأت ورقة البحث وقد اقترب طرفها من كأس الملك، فنقلته بعيدًا، ثم أعادت الورقة إلى مِهراز.

نهض أردان، فانتظرته سيراي عند الباب. مد يده إلى كتفها وهما يخرجان نحو الساحة الكبرى.

وقف نائل عند الباب حتى ابتعدا. كان يستطيع أن يرى من مكانه مصابيح تُحمل إلى الأسوار، ورجالًا ينادون على أسماء ليست أسماء رفاقه. في الجهة الأخرى تحت القصر حجرة تجمع فيها الماء فوق شيء جاؤوا يطلبونه.

قال لرائف:

«نأخذ معنا نسخة واحدة إلى الأسفل. الأخرى تبقى هنا.»

وافق، وراجع مع مِهراز العلامات التي يجب أن يروها قبل رفع اللوح. طلبت سدرا حبالًا جديدة ودعامتين أقصر. ذهب رفال مع العامل الأكبر ليأتي بهما، فيما خرجت نيرفا مع دارِن لتعرف أي باب سيظل مفتوحًا إذا احتاجوا إلى نقل مصاب أو إرسال رسول.

إيسا وقفت عند النافذة. أخرجت الورقة الصغيرة من جرابها، وفتحتها مرة واحدة. نظرت إلى العلامة، ثم طوتها وأعادتها. حين اقترب منها نائل، سألت عن مصب المجرى.

«سنذهب إليه الآن.»

«آتي معك. أريد أن أرى أين يخرج الماء قبل أن ننزله من الحجرة.»

أخذ نائل المصباح. عند أول الدرج أحس بالبوصلة تضرب حزامه، فثبتها بكفه. خلفه حمل رائف الرسم، وتقدم مِهراز ليفتح باب الممر المؤدي إلى المصب، وقد أخذ مفتاحه من العامل الأكبر.

في الأسفل سمعوا الماء يجري في جهة عرفوها أخيرًا.

⁂

كان الماء يصل إلى المصب على دفعات، يسبق كلًّا منها صوت أجوف من وراء الجدار.

وقف نائل عند آخر الدرج، ورفع المصباح حتى رأى الشبكة الحديدية. خلفها انحدرت قناة إلى حوض ضحل، ثم خرجت من فتحة تحت سور الجناح القديم. التصقت بالشبكة أوراق داكنة وقماش متعفن، وعلى الأرض خط رطب يدل على ارتفاع الماء قبل أن يجد منفذًا.

جثت إيسا إلى جانبه. أدخلت أصابعها بين قضيبين، ثم سحبتها حين اندفعت دفعة أخرى.

«هذا يخرج من الممر. الذي وراء اللوح لم يصل بعد.»

مد العامل الأكبر قضيبًا طويلًا إلى الفتحة. اصطدم بشيء، فحاول دفعه. أمسكت إيسا طرف القضيب قبل أن يعيد الضربة.

«من الجهة الأخرى أولًا. إن سددته بما تدفع، عاد الماء إلينا.»

نظر العامل إلى مِهراز. أخرج الحافظ مفتاح الباب الخارجي، وأعطاه إياه. تبعه الرجل الثاني، وسمع نائل احتكاك أقدامهما في الساحة وراء الجدار. أبقى

المصباح فوق الشبكة حتى ظهرت من الجانب الآخر يد بقفاز خشن، ثم رأس القضيب وهو يجر كتلة من الطين والجذور.

انطلق الماء أسرع. انحنت إيسا لتتبعه بعينها، ونقلت يدها المصابة إلى حجر جاف تستند إليه. كان على نائل أن يبعد الضوء قليلًا كلما ارتفع البخار من الثياب المبتلة.

عاد العامل ومعه ما أخرجه. قطعة خشب مربعة ثُقبت من وسطها، تشابكت حولها الجذور. قلبها على الأرض، وقال إنهم كانوا يسمعون اصطدامها حين يشتد المطر. ظنها قطعة من بوابة قديمة في المجرى.

فحص رائف حافتها. كانت عليها آثار تثبيت صدئة، وفي طرفها جزء من رقم.

«اتركها هنا. نرى إن كانت من الحاجز الذي نبحث عنه.»

أخرج من جرابه قطعة فحم، ووضع علامة فوق المستوى الذي بلغه الماء. طلب نائل منه أن يضيف علامة ثانية عند الدرجة التي يقفون عليها. التفت إليه رائف، ثم فعل.

«إن عاد إلى هذه، نخرج.»

قالت إيسا:

«وقبلها أريد أن أكون عند الفتحة. لن أستطيع رد ما في الحجرة كلها.»

سمع نائل خطوات خلفه. جاءت سدرا مع النجار، وفي يدها وتد قصير شقته من خشبة جديدة. وضعت الوتد قرب الحائط، ومررت كفها على الأرض حتى بلغت حافة القناة.

«هذا الجانب متصل بالحاجز. أستطيع أن أحس بتغير حمله من هنا.»

سألها النجار إن كانت تريد أن يثبت الدعامة عند المصب أيضًا. نظرت إلى الماء، ثم إلى السقف.

«الدعامة فوق. هنا نحتاج طريقًا نخلي منه أقدامنا بسرعة.»

أبعد نائل الجرابين عن الدرج، وحملهما رفال إلى موضع أعلى. كان الرباط حول كف رفال نظيفًا، وقد وضع الحلقة في غلافها حتى لا تعلق بالحبل. حين عاد، أخذ موضعه عند الدرجة التي رسم رائف علامتها، ومد من هناك حبلًا إلى العامل الواقف في الأسفل.

رفعت إيسا بصرها إليه.

«إذا طلبت أن تسحب، تسحبني. لا تنتظر أن أعيدها.»

لف الحبل حول كفه السليمة، ثم أرخاه بمقدار ما تحتاجه.

وصلت نيرفا ودارِن قبل أن ينصرفوا إلى الحجرة. أعطاهما دارِن خبر فتح الباب المؤدي إلى الساحة الخلفية، وأن الحرس سيتركونه خاليًا من العربات. وقفت نيرفا عند الدرجة العليا، تنظر إلى العلامتين على الجدار.

«ومن يبقى هنا؟»

أشار نائل إلى إيسا ورفال والعامل الثاني.

«إذا نزل الماء كما نريد، يرسل إلينا العامل. وإن ارتفع، يصعدون جميعًا.»

سأل دارِن عن عدد الرجال الذين سيبقون عند الحاجز. أجابه النجار بأسماء اثنين، ثم قال إن ثالثًا يستطيع أن يمسك المصباح. مد نائل يده إلى رائف.

«نحن نحمله.»

قبل أن يصعد، عادت إيسا إلى الشبكة. أخرجت بيدها السليمة ورقة عالقة بين القضيب والحجر، وتركت الماء يحمل ما تفتت منها. ثم ثبتت نظرها على العلامة السفلى.

⁂

كانت الدعامة الجديدة قد أخذت مكانها عند اللوح، لكن الخشب ما زال يصدر صوتًا خفيفًا كلما وضع النجار يده على أحد الأوتاد. وقف نائل خلفه، والمصباح فوق كتفه، يرى الغبار ينزل في خط ضيق عند الحافة.

مررت سدرا إصبعها بمحاذاة الوصلة التي اختفت في العتمة. وضعت أثر الأرض على القماش عند ركبتها، ثم حملته في كفها المفتوحة. أغمضت عينيها، وأصغت طويلًا.

قال النجار:

«يثبت؟»

«الحجر فوقه يتحرك إلى الجانب. أريد وتدًا هنا، قبل أن نخفف ما تحته.»

دلته على موضع أبعد مما اختار. اختبره بطرقة خفيفة، ثم نقل رأسه ليرى امتداد الشق. ضرب الوتد حتى استقر. فتحت سدرا عينيها، وردت الأثر إلى غلافه.

أخرجت قضيبها، وطلبت منه أن يبقى عند الخشبة.

راقبها نائل وهي تعمل على التجويف أسفل اللوح. خرج الطين أولًا، ثم ظهر طرف حديد صُنع ليمسك به عامل. حاول الرجل الأكبر جذبه، فلم يتحرك. رفع رأسه يسألها، فأشارت إلى نائل أن يقرب الضوء.

خلف الحديد كان شق رفيع يمر في حجر القائم ثم يضيع تحت اللوح. وضع نائل العصا بمحاذاته. أحس بالاتصال يبتعد عن يده كلما حاول أن يتبعه في عمق الجدار، فركع حتى صارت عينه في مستوى الفتحة.

«هنا ينقطع.»

أدخل رائف العود الذي استعمله عند ثقب النظر. تحرك رأسه في فراغ صغير، وخرج مبللًا.

«قد يكون موضع مرور الحاجز.»

أدارت سدرا القضيب قليلًا، فكشف عن حافة لوح أصغر يغلق القناة. جاءت طرقة من جهة المصب؛ العامل يعلن أنه وصل إلى مكانه. رد النجار بطرقتين على الحجر، ثم أخذ الحبل الذي ربطوه في المقبض الحديدي.

قال نائل:

«مقدار إصبع أولًا.»

شد الرجلان. ارتفعت الحافة، فخرج منها صفير، وتبعه ماء أسود في المجرى الضيق. تحرك طرف العصا في يد نائل. ثبتها قرب المفصل، وأحس بمقاومة تستقر بدل أن تزيد.

رفعت سدرا يدها.

«توقفوا.»

انحنى النجار إلى الوتد. كان قد دخل أعمق في الخشب، وترك فوقه شقًا صغيرًا. دفع تحته قطعة أخرى. انتظروا حتى انخفض الصوت الصادر من وراء اللوح، ثم رفعوا حاجز القناة قليلًا.

من الأسفل جاء نداء العامل. لم يفهم نائل كلماته، لكن رفال أعادها من عند الدرج:

«الماء يخرج!»

واصلوا على دفعات. كلما ارتفع الحاجز مقدارًا، طلبت سدرا الانتظار، وفحص النجار الوصلات. صار نائل يعرف من رجفة العصا متى يكون قد شد أصابعه أكثر مما يحتاج، فيرخيها حتى يعود الإحساس إلى راحته. رائف يحمل المصباح له، ويبدل يده حين يحرق الزيت حافة المعدن.

خرج شيء صلب من القناة، وارتطم بالقائم. توقف الماء فجأة.

قال العامل الأكبر:

«أرفعه أكثر؟»

«لا.»

ردت سدرا قضيبها تحت الحافة. حاولت أن تحرك ما علق، ثم سحبت يدها بسرعة. جرح طرف حاد القماش حول إبهامها، وظهر فيه خط أحمر.

طلبت ملقطًا. كان في الجراب عند الدرج، فأسرع رائف ليأتي به، وترك المصباح لنائل. سمعوا من الأسفل صرخة إيسا:

«أغلقوا قليلًا!»

أنزل الرجلان الحاجز حتى ضاق المجرى. بلغ الماء طرف حذاء نائل، ثم ارتفع فوق النعل. شد ذراعه ليحافظ على موضع العصا، وأبعد الضوء عن رذاذ قفز من الشق.

وصل الملقط. أمسكت سدرا به شيئًا لم يستطع نائل رؤيته، وجذبته إلى الخارج. خرجت قطعة حديد ملتوية، وعلى طرفها الخشب الأسود نفسه الذي رأوه عند المصب. وضعتها إلى جانبها، وعادت إلى المقبض.

«الآن ارفعوا إلى العلامة السابقة.»

انطلق الماء من جديد. تراجع عن حذاء نائل، وكشف خط الطين عند الحجر. من بعيد سمع سعالًا، ثم صوت رفال يسأل إيسا إن كانت تستطيع الوقوف.

أدار نائل رأسه نحو الدرج.

قال مِهراز:

«أنا أذهب.»

انتظر عند العصا حتى عاد الحافظ. كانت إيسا جالسة فوق الدرجة العليا، وقد سحبها رفال حين ارتد الماء من المنعطف. ضرب كتفها الحجر، لكنها تستطيع تحريك أصابعها. العامل عند الشبكة الآن، والمصب مفتوح.

شعر نائل بأن قبضته تؤلمه. طلب أن يتولى الرجلان حمل الحاجز، ثم سحب العصا ببطء. جلس على كعبيه، وترك يده مفتوحة إلى جانبه. مد رائف إليه القربة، فسقط أول الماء على ثوبه قبل أن يبلغ فمه.

قالت سدرا:

«ننتظر حتى ينزل تحت موضع النظر.»

مر وقت يسمعون فيه الماء وحده. عند كل تبديل للمصباح كان رائف ينظر من الثقب، ويصف الخط الذي انكشف على الجدار المقابل. ظهر أولًا رأس القاعدة، ثم جانبها، ثم جزء من الأرض يلمع فوقه الوحل.

حين توقف الخط عن الانخفاض، أدخل النجار قضيبًا تحت اللوح الكبير. طلب من رجاله أن يقفوا حيث تستطيع الأيدي أن تنسحب إذا تحرك الخشب. وضعت سدرا كفها على الدعامة، ووجهت نائل إلى قائم الباب.

أخرج الختم، وقربه من الشق الذي وجده عند المفصل. انتشر دفء خفيف في أطراف أصابعه، ثم استقر. حمل العصا باليد الأخرى، وانتظر.

رفعت سدرا عينيها إليه.

«معنا.»

ضغط الرجال على القضبان. ارتفع اللوح قليلًا، وسقط من تحته طين متماسك. أحس نائل بالاتصال يمر من القائم إلى العتبة، فتبعه بقدر ما يستطيع أن يراه. انفتحت فجوة تصلح ليد، ثم لرأس. وضع النجار دعامة قصيرة تحتها، وأخرج الرجال القضبان ليعيدوا إدخالها في موضع أعلى.

في الرفعة الثالثة انزلق الحجر إلى مجراه القديم. اندفع الهواء البارد من الحجرة، وأطفأ أحد المصابيح.

بقي الضوء في يد رائف.

⁂

رأى نائل الأثر قبل أن يرى بقية الحجرة.

كان فوق قاعدة مرتفعة، يتجاوزها طرفاه قليلًا. انحسر الماء تحت موضعه، وترك على الحجر خطًا داكنًا يلتف حول الجدران. في الوجه الظاهر خطوط تشبه التي رأوها في البديل، لكنها أدق عند الأطراف، وفي حافته نقرة مكسورة غير منتظمة.

وقف رائف عند العتبة. رفع المصباح، ثم أنزله حتى يسقط الضوء من الجانب.

«هناك.»

لم يتقدم. كان بين الباب والقاعدة شريط من الأرض غطاه الطين، وفي وسطه انخفاض امتلأ بماء لا يعرفون عمقه. أخذ العامل قضيبًا واختبر الحجر خطوة خطوة، حتى بلغ القاعدة. تبعه مِهراز، ثم أشار إلى رائف.

دخل نائل آخرهم. احتك رداؤه بالقائم، فالتفت يطمئن إلى الختم في غلافه. سدرا عند اللوح، تراقب الدعامة مع النجار. من ورائها وصل صوت نيرفا، تسأل إن كانوا يحتاجون إلى رجل آخر، فأجابها الحافظ أن تنتظر عند الدرج.

كانت الحجرة أصغر من الغرفة التي عرضوا فيها البديل. لا رفوف فيها، ولا مكان يصلح لجلوس أحد. عند الجدار المواجه للباب تجويف ضيق يحمي ظهر القاعدة من الماء المتساقط، وفي أعلاه خطان محفوران تحت طبقة من الغبار الأبيض.

انحنى رائف إلى الأثر. قرب يده، وتوقف قبل أن يلمسه.

قال مِهراز:

«ما الذي يمنعك؟»

«أريد أن أرى كيف ثبتوه.»

جثا إلى جانب القاعدة. تحت الطرفين موضعا تثبيت، وفي كل منهما لسان معدني قصير يدخل في ظهر القطعة. كان أحد اللسانين قد اخضر من الرطوبة، لكن الحجر حوله سليم. أخرج نسخة الرسم ووضعها على ركبته.

قارن المسافة، ثم رفع عينيه إلى مِهراز.

«هذه هي.»

نظر الحافظ إلى النقرة في الحافة. أخرج العدسة، ومرر الضوء تحتها، ثم سلمها لرائف. عند الكسر شقوق دقيقة تدخل إلى قلب المادة، وتتفاوت أعماقها حيث انفصل الجزء المفقود.

قال رائف:

«النسخة أعادت شكلها. لم تستطع أن تعيد هذا.»

لمس موضعًا بعيدًا عن النقرة. طال صمته، حتى سمع نائل احتكاك كم الحافظ بالقماش حين غير موضعه. رفع رائف إصبعه، ثم أعاده إلى خط آخر.

«أحس بما كان هنا قبل التآكل.»

قال مِهراز:

«صف ما تجده.»

«جزء من الخط أعمق مما تراه العين. لكنه ليس محفورًا الآن.»

مال حتى كاد جبينه يمس القاعدة. امتدت يده الثانية من غير أن ينتبه، ثم قبض بها على الحجر تحت الأثر. سقطت الورقة من ركبته إلى الوحل.

التقطها نائل، ورفعها بعيدًا عن الماء.

«رائف.»

فتح الرجل عينيه. كانتا على الخط نفسه، لكنه احتاج إلى لحظة قبل أن يلتفت.

أخذ مِهراز يده وأبعدها.

«انظر إلى المصباح.»

حاول رائف أن يجيب، فلم تخرج منه إلا كلمة غير تامة. جلس على حافة القاعدة، وثبت كفيه على ركبتيه. ناوله نائل القربة.

قال بعد أن شرب:

«كأنه أكثر من سطح في الموضع نفسه.»

حرك أصابعه في الهواء، ثم نظر إليها.

«كنت أتبع واحدًا، فيدخل فيه غيره.»

وضع مِهراز القماش فوق القطعة حتى أخفى خطوطها.

«تتركها الآن.»

أخرج رائف نفسًا، ومسح الماء عن فمه. بقي نائل قريبًا منه، ينتظر أن يرفع رأسه. عند الباب نادت سدرا أن الحمل استقر، لكنهم يحتاجون إلى إسناد إضافي إذا أرادوا إبقاء الحجرة مفتوحة حتى الصباح.

طلب مِهراز أن يُنقل الأثر. أحضر العامل صندوقًا صغيرًا أعدوه في الأعلى. فتحه على موضع جاف، وفرش في قاعه القماش. فحص الحافظ اللسانين المثبتين، ثم جعل سدرا تراهما قبل أن يحاول إخراج القطعة.

دخلت حين أخذ النجار مكانها. أضاء نائل لها جانبي القاعدة. مدت أداة رفيعة تحت اللسان الأول، وحركته قليلًا، ثم توقفت.

«هذا ينسحب إلى الخارج. لا ترفعوه.»

أعادت الأداة، ودفعت طرف المعدن ببطء حتى تحرر. عملت على الثاني بالطريقة نفسها، وكان أشد صلابة. عند آخر دفعة تحركت القطعة في يد مِهراز، وكاد طرفها يضرب الحجر، فأمسكها رائف بالقماش قبل أن تنزل.

انقبض وجهه، لكنه أتم الحركة حتى استقرت في الصندوق. تركها فورًا، ورد يديه إلى صدره.

ظهر خلفها لوح ضيق غطته طبقة غبار جاف. كان في الموضع الذي حجبه جسم الأثر عن الرطوبة وعن النظر. مر الضوء فوقه، فانكشفت حروف صغيرة، بعضها في صف منتظم، وبعضها أُضيف إلى جانبه بيد أخرى.

رفع نائل المصباح.

قرأ رائف الكلمة الأولى، ثم قرب وجهه.

«لحافظ...»

توقف. مد مِهراز يده ليمنعه من المسح، لكنه كان قد رد أصابعه إلى القماش. طلب فرشاة الكاتب من الجراب، وأزاح بها الغبار عن طرف السطر.

عند أعلى اللوح علامة ملكية ناقصة عند الحافة. رآها نائل في سجل القطعتين. كان الجزء الغائب في الورقة واضحًا هنا، محفورًا تحت المكان الذي ثُبت فيه الأثر.

قال مِهراز:

«نحمل هذا أيضًا.»

هزت سدرا رأسها.

«هو من القاعدة. إن قطعناه الآن، ضاع ما عند الحافة.»

ترك الحافظ يده، ونظر إلى رائف.

«انسخ ما يظهر. والباقي حين نستطيع أن نضيئه.»

أخذ رائف الورقة النظيفة التي حملوها معهم، وثبتها على غطاء الصندوق. رسم موضع كل سطر، وترك فراغًا حين عجز عن تمييز الحروف. عند آخر السطر الثاني ارتج القلم في أصابعه.

أمسك نائل الغطاء ثابتًا.

قرأ رائف بصوت خافت:

«شهادتي...»

ثم سكت، وعاد إلى أول الكلمة.

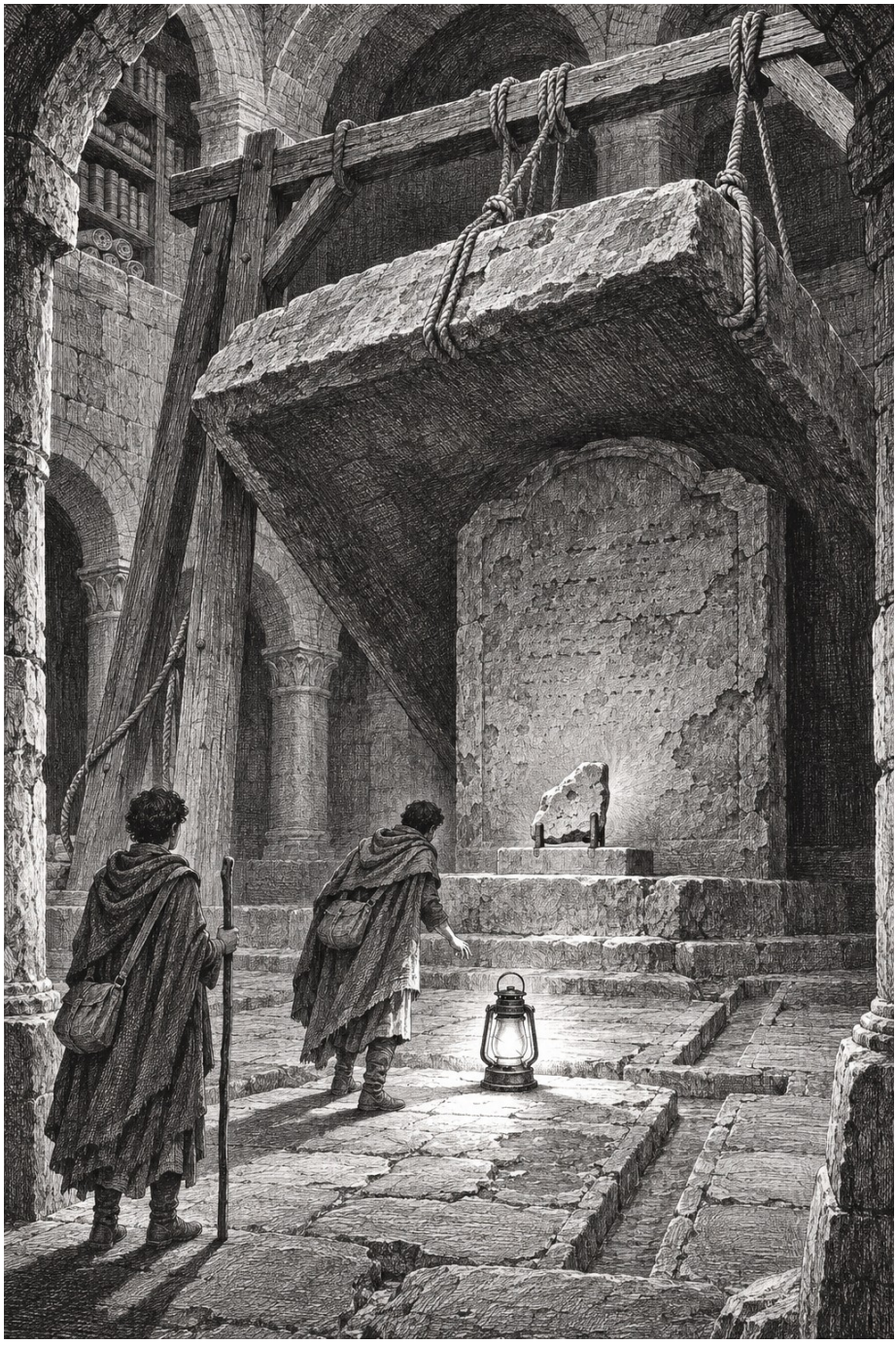

⁂

خرج الصندوق قبلهم. حمله العاملان إلى الغرفة العليا، ومِهراز يمشي خلفهما حتى لا يميلاه عند الدرج. عند المصب كانت إيسا تضع قطعة قماش جافة تحت حمالتها. رفع رفال القربة إلى فمها، فشربت قليلًا، ثم أبعدتها بيدها السليمة.

نظر نائل إلى كتفها.

«ضربته فقط»، قالت. «سأجعل المعالج يراه.»

أرته الخط الذي تركه الماء تحت العلامة العليا بمقدار إصبعين. وقف بجانبها لحظة، ثم ساعدها على الصعود. كلما بلغوا درجة مرتفعة، تقدمت بقدمها أولًا، وانتظر حتى تنقل وزنها قبل أن يمد يده.

في الغرفة التي أعدت للفحص، كانت النوافذ مسدلة والمصابيح على منضدة واحدة. وضع مِهراز البديل إلى جانب الصندوق المفتوح. لم يلمس أحد القطعتين حتى جاء أردان.

وصل الملك من مجلس القادة، وعلى ردائه رائحة دخان. وقف عند الباب حين رأى العامل الأكبر يلف يده بقطعة قماش، وسأله عن إصابته. قال إنها من الحديد عند القناة. طلب إلى دارِن أن يرسل من يتولى مكانه، ثم اقترب من المنضدة.

رفع مِهراز الغطاء.

ظل أردان ينظر من الأصل إلى البديل. مد إصبعه إلى موضعي التثبيت في ظهر القطعة، ثم إلى الثقب الواحد في الأخرى.

«كل هؤلاء الحفظة...»

ترك بقية الجملة. تناول دفتر الحراسة الذي وضعه الكاتب أمامه، وقلب حتى بلغ آخر صفحة. كان اسم مِهراز في أسفلها، وتاريخ الفحص السابق قريبًا.

قال الحافظ:

«أنا أيضًا كتبت أنها هي.»

أعاد الملك الدفتر إلى المنضدة.

«اكتب ما وجدناه اليوم.»

قرأ رائف القرائن التي جمعوها: القاعدة القديمة، وموضعا التثبيت، والنقرة المنقولة في النسخة، والقيد الذي قادهم إلى الحجرة. حين بلغ إحساسه بالخط الذي تآكل، طلب منه أردان أن يبين الفرق بينه وبين ما يستطيع الآخرون رؤيته.

وضع رائف يده على حافة المنضدة.

«هذا رأيناه جميعًا.»

أشار إلى القطعتين.

«أما ما أحسست به، فلا أعرف بعد كيف أضعه أمامك كما هو.»

قال مِهراز إنهم سيبدؤون بما يمكن مقارنته. أخرج قصاصة جلد استُعملت قديمًا لتجربة الحبر، وبجانبها ورقة نُسخ فيها ما كتب عليها قبل أن يُمحى. غطى الورقة، وأعطى رائف القصاصة.

نظر الملك إلى الحافظ.

«تريده أن يحمل القوة الآن؟»

«أريده أن يعرف ما يستطيع أن يتركه قبل أن يأخذها في الطريق.»

جلس رائف. وضع القصاصة أمامه، وترك مسافة بينها وبين الأثر. على الجلد أخاديد كادت تختفي بعد الكشط. تتبع أحدها بعينه، ثم أغمض عينيه ليرتاح.

سأله مِهراز عمّا يقرأ.

«حرفان. والباقي مما أعرفه عن صيغة السطر.»

دفع إليه ورقة صغيرة.

«اكتب الحرفين وحدهما.»

كتب. وضع مِهراز الأثر على القماش بجانب يده.

تردد رائف لحظة، ثم مد أصابعه إلى السطح الداكن. هذه المرة أبقى عينيه على القصاصة. انقبضت عضلات فكه، ومال برأسه كأنه يستمع إلى شيء قريب جدًا من أذنه.

أمسك القلم، وكتب ثلاثة أحرف أخرى. في الرابع توقف، ثم مد الخط حتى دخل في حرف لم يكن قد بدأه.

وضع مِهراز يده فوق الورقة.

«أين تنظر؟»

«إلى الكشط.»

«كشط واحد؟»

تأخر الجواب. رفع رائف يده عن الأثر، وأسند ظهره إلى المقعد.

«اثنان. كتبوا فوق كتابة أقدم.»

كشف الحافظ الورقة التي كانت معه. خمسة أحرف مما كتبه رائف وافقتها. أما الخط الأخير فدخل في كلمة من سطر آخر، مذكور في هامش الناسخ بوصفه كتابة سابقة.

قرب أردان الورقتين. طلب إلى الكاتب أن يقرأ الهامش، فقرأه مرتين، ثم رفع القصاصة إلى المصباح ليرى موضع الخدش.

كان نائل يراقب يد رائف. في الممر اعتاد أن يراه يمسك الورق بثبات، حتى وهو يمشي. الآن كان إبهامه يرتجف على حافة المنضدة.

قال له:

«نكتفي بهذا الليلة.»

نظر رائف إلى الحروف الخمسة.

«قد أستطيع أن أكمل.»

مد نائل القماش ليغطي الأثر، وتوقف منتظرًا. بعد قليل سحب رائف يده من جواره، فأتم التغطية.

قال أردان:

«حين طلبت منك أن تبقى مع مِهراز، كنت أريد أن أعرف من يحمل ما نحفظه. رأيتك الآن تتركه وأنت تريد العودة إليه.»

وضع كفه على ظهر المقعد، قرب كتف رائف.

«تتعلم معه ما تحتاج، ثم يخرج الأصل معك. تحفظون لنا ما تجدونه، وتردون إلينا الخبر حين تستطيعون.»

رفع رائف رأسه.

«أخرج به لأستعمله.»

«لهذا أُذن بخروجه.»

أخذ مِهراز القطعة بالقماش ووضعها في يد رائف. انتظر حتى ثبتت قبضته حولها، ثم جعل أصابعه ترتخي قليلًا.

«اجعل لها غلافًا لا تضطر إلى فتحه كلما بحثت عن شيء في جرابك.»

هز رائف رأسه. نظر إلى نائل، وفي عينيه تعب لم تخفِه ابتسامته القصيرة. حمل الأثر إلى صدره، ثم طلب إلى الكاتب قطعة الجلد التي تكفي لغلاف مستقل.

خلف النافذة دق جرس تبديل الحراسة. التفت أردان نحوه، وسأل دارِن إن كان رسول الطريق قد وصل. أجابه أنه ينتظر في الغرفة المجاورة.

قبل أن يخرج الملك، وضع رائف نسخة اللوح الذي ظهر وراء الأثر أمامه.

«وجدنا هذا في موضعه.»

توقف أردان عند أول السطور. قرأ الكلمة التي عرفها رائف في الأسفل، ثم نظر إلى الفراغات التي تركها.

«شهادة عمّن؟»

قال رائف:

«نحتاج أن نعود.»

⁂

عادوا إلى الحجرة حين صار الضوء عند النوافذ رماديًا.

نام نائل على المقعد وقتًا لم يعرف مقداره. أيقظه احتكاك غلاف رائف بحافة المنضدة، ففتح عينيه ليجده قد ربطه إلى حزامه. بقيت القصاصة القديمة أمامه، وبجانبها الحروف الخمسة. طوى الورقة التي أخطأ فيها ووضعها معها.

سأله نائل إن كان قد نام.

«قليلًا.»

نهض، وأخذ القربة قبل أن يطلبها أحد. عند باب الغرفة وجدوا مِهراز ينتظر ومعه الكاتب ومصباحان. أخبرهم أن النجار ثبت الحاجز على دعامتين، وأن الماء استقر عند قاع القناة. أرسل من يفحصهما، وأبقى الرجل هناك حتى ينتهوا.

كانت إيسا نائمة في الغرفة الأخرى، والمعالج قد شد رباط كتفها من جديد. رفال جلس عند الباب ينزع الطين الذي يبس على حذائه. رفع رأسه حين مروا.

«تحتاجونني؟»

قال نائل:

«ابقَ معها حتى تستيقظ. نعود بما نستطيع قراءته.»

لم يتحرك رفال من مقعده. أخرج الحجر الصغير الذي علق في النعل، ورماه في الوعاء الذي جمع فيه ما نزعه. على راحته لمع طرف الحلقة لحظة، ثم غطاه بأصابعه.

نزلت سدرا معهم. تركت قضيبها قرب النجار، وفحصت الدعامة قبل أن يدخل أحد. حين اطمأنت، وقفت عند العتبة، حيث تستطيع أن تراهم وأن تسمع الخشب فوقها.

أخذ رائف مكانه أمام القاعدة الفارغة. في الضوء الجديد ظهرت الحروف على اللوح أوضح. كان الجانب الأيسر قد أصابه البلل قديمًا، فتركت الأملاح أثرًا أبيض قرب نهاية السطر. وضع الكاتب ورقته على لوح يحمله نائل، وبدأ ينقل ما يقرأه مِهراز.

«لحافظ الأثر من بعدي.»

توقف الحافظ عند الكلمة التالية. قرب المصباح، ثم أماله حتى صار الظل داخل الحروف، وواصل:

«أبقيت الصورة في موضع الطلب، وحفظت الأصل...»

أعاد قراءة آخر كلمتين. وافقت الصياغة جزء التعليمات الذي وجدوه في الأرشيف. أخرج رائف تلك النسخة من جرابه، ووضعها إلى جانب ما يكتبه الرجل.

تحت السطر الأول كان الحفر أعمق. تحرك مِهراز إلى اليسار، وأزاح بفرشاته ما استطاع من المسحوق.

«كيلا تجتمع...»

تعذر ما بعدها. ترك الكاتب فراغًا، ورسم طول المساحة المفقودة. عند آخر السطر ظهرت كلمة كاملة، لم يحتج أحد إلى إمالة الضوء كي يقرأها.

«المحو.»

أحس نائل ببرودة الحجرة تصعد من نعليه إلى ساقيه. رأى الختم في غلافه عند خاصرته، ثم نظر إلى القاعدة التي خلت من الأثر قبل ساعات. كان قد دخل ليأخذ الشيء الذي أراد رجل آخر أن يمنع جمعه.

قال مِهراز:

«ننسخ الباقي.»

تابع الكاتب. في أسفل اللوح كلمة الشهادة، وبعدها فعل يمتد طرفه تحت موضع التثبيت القديم. جثا رائف، وأضاء له نائل من جهة منخفضة. رفع مِهراز اللسان المعدني الذي أخّروه إلى الجانب، فانكشفت نهاية الكلمة.

«أرسلت شهادتي...»

رفع رائف بصره. في الحفرة الضيقة تحت السطر ثلاث كلمات، ثم علامة على هيئة ختم صغير في نهاية اللوح. كان وسط الكلمات مقشوطًا بخطين عريضين، يختلفان عن تآكل الحواف.

مد مِهراز الفرشاة، فأوقفه رائف.

«هذه أداة. انظر أين خرجت من الحجر.»

قرب الحافظ العدسة. أشار إلى نهاية الخدش، ثم إلى أثر ضربة ثانية لم تصل إلى عمقه.

«محا اسم الموضع؟»

«شيئًا فيه.»

وقف نائل خلف رائف. كان يعرف الحركة التي ستأتي؛ اليد إلى الغلاف، ثم القماش إلى المنضدة أو الحجر. هذه المرة أخرج رائف الأثر ووضعه على ركبته، وطلب أن يُبعد الكاتب ورقته قليلًا.

«اكتب ما أقوله كما هو. إن توقفت، لا تكمل الكلمة.»

ثبت الرجل القلم.

وضع رائف يده اليسرى على الأثر، واليمنى قرب موضع الكشط. لم يمسح الحجر. أغلق عينيه لحظة، ثم فتحهما على أول الخط.

قال حرفًا، ثم آخر. كتب الرجل، وانتظر. عند الثالث تغير نفس رائف، فتوقف. رفع يده عن الأثر، وأعادها بعد أن نظر إلى أول السطر الظاهر.

«إلى حفظة الذاكرة...»

لم يكتب الكاتب العبارة كلها فورًا. طلب منه أن يحدد ما قرأه من الحجر وما أكمله من معرفته. أشار رائف إلى كل موضع، وأعاد الأحرف متفرقة. نقلها الرجل، وبقي بين كلمتين فراغ صغير.

قال مِهراز:

«وهذا؟»

كان يشير إلى اسم بعدهما، يبدأ بجزء من حرف سليم وينتهي بحرفين تحت الخدش.

أصغى رائف إلى الحجر حتى انحنى رأسه. تحركت أصابع يده فوق الأثر، وامتد إبهامه إلى الخطوط التي عند الحافة. رأى نائل لون وجهه يتغير، فوضع القربة قرب ركبته.

«رائف، انظر إليّ.»

رفع الرجل عينيه ببطء.

«هناك كتابة ثانية في طرفه. أظنها رقمًا.»

«اترك الرقم الآن.»

أخذ نفسًا من فمه، وأبعد الأثر عن يده. ظل ينظر إلى الاسم المنقوص، ثم أملى الحروف التي استطاع فصلها عن غيرها. كتبها الرجل، وقلب الورقة ليراها مِهراز.

قرأ الحافظ بصوت يسمعه الجميع:

«نومارا.»

ارتد الاسم عن الجدار القريب. نظر نائل إلى الورقة، ثم إلى الحروف المحفورة. كانت النهايتان الظاهرتان توافقان ما أملاه رائف، وبينهما مواضع لم يعد نائل يرى فيها إلا الخدش.

قال:

«الشهادة هناك؟»

أجاب رائف وهو يغطي الأثر:

«هذا يقول إنه أرسلها.»

تقدم مِهراز إلى العلامة الصغيرة في نهاية اللوح. كانت تحت الخدش، سليمة في نصفها الأسفل. طلب إلى الكاتب أن يرسمها منفصلة، ثم أن يكتب إلى جانبها عدد الخطوط والمسافة بينها. أخذ من رائف نسخة الحساب، وقارن موضع العلامة بما في هامشها.

«هذا رقم تسليم.»

سأله نائل إن كان يعرف أين يجد ما يقابله.

«نبحث في سجل الرسائل من هذا العهد. إن بقي منه شيء.»

رفع رائف يده عن الغلاف، كأنه يريد أن يعود إلى السطر الذي يتحدث عن المحو. تردد، ثم طلب إلى الكاتب أن يضع علامة عند كل حرف لم يقرأه بعينه. تابع الرجل يفعل ذلك، حتى صار السطر واضحًا بما فيه من فراغات.

عند الباب تغير صوت الدعامة. استدارت سدرا، ووضعت كفها على الخشب.

«نخرج الآن.»

جمع الكاتب أوراقه. حمل نائل اللوح الخشبي والمصباح، وأعان رائف على النهوض. حين مر من العتبة سأل سدرا إن كانت الحجرة ستنهار.

«الوتد تحرك مع الجفاف. نعيد تثبيته من الخارج.»

خرج النجار من وراءها يحمل المطرقة. تبادل معها موضعًا ضيقًا عند الدرجة، ثم سمعوا طرقه فوقهم وهم يصعدون.

⁂

في الأرشيف كتب مِهراز الاسم على رقعة صغيرة، ووضعها قرب دفتر المراسلات.

لم يحتج إلى شرح غرض البحث للكاتب مرتين. بحث الرجل في قوائم العهود حتى وجد اللفافة التي توافق العلامة، ثم وضعها على القماش. كان أحد طرفيها قد اسودّ، وفي الرباط عقدة قاسية اضطر إلى قطعها.

فتحها مِهراز على دفعات. أول الصفحات أسماء رسل ومقادير زاد، ثم حساب خيل أُعيد بعضها إلى إيفارا وبقي بعضها عند محطات الطريق. بحث نائل عن الاسم الذي سمعه تحت الأرض، فوجد أن المدن تُكتب أحيانًا كاملة وأحيانًا بعلامة لا يعرفها.

دلّه رائف على موضع قريب من أسفل الورقة.

«هذه نومارا. انظر إلى اسمها في السطر الذي بعده.»

تكرر الاسم بالحروف، وتحت العلامة رقم يختلف عن رقمهم بواحد. طلب مِهراز الصفحة السابقة. قلبها الكاتب بحذر، فكشف عن قيد أقصر من بقية القيود، خالٍ من وصف الحمولة.

إلى جانب الرقم علامة ملكية، وفي خانة المرسل إليه كُتب: «دار الحفظ». وتحتها سطر أضيف بحبر أغمق.

قرأه مِهراز:

«ورد الإقرار بالوصول.»

مال نائل إلى الورقة. تاريخ الإقرار متأخر عن تاريخ الإرسال، وبينهما أسماء محطات عبرها الرسول في رحلة العودة. على الهامش رسم الختم الصغير نفسه الذي نسخوه من اللوح.

قبل أن يغلق الكاتب اللفافة، أشار إلى إحالة في أسفل القيد. حملت رقم تعليمات الحفظ التي قرؤوا منها أمر إبقاء الصورة في موضع الطلب. طلب مِهراز أن يأتي بأصلها، وقارن الرقمين، ثم قلب الرقعة إلى ظهرها. كان هناك سطر آخر، أخفاه القماش الذي أُلصق بطرفها ليمنع تمزقها. فصل الكاتب القماش عند الحافة السليمة، وأماله حتى يستطيع الحافظ قراءته. نقل مِهراز السطر إلى ورقة، ووضعها تحت قيد الإرسال.

قال رائف:

«وصلت.»

وضع الحافظ إصبعه قرب التاريخ من غير أن يمسه.

«وصلت يوم كُتب هذا.»

نظر نائل إلى مقدار الزمن الذي يفصلهم عنه. صار وراء اسم المملكة موضع محدد، ووراء الموضع شيء قال رجل إنه أرسله، وشخص آخر سجّل أنه وصل. أما الباب الذي يفتح عليهم الآن، فكان باب الأرشيف في مدينة تستعد للحصار.

دخل دارِن ومعه نيرفا. كانا قد رجعا من البوابة الشرقية، وعلى حذاءيهما تراب جاف يختلف عن طين الحجرة. سأل دارِن عن الوقت الذي يحتاجونه قبل أن يروا الملك.

قال مِهراز:

«ننسخ هذا، ونأتي.»

رأت نيرفا الاسم على الرقعة. نظرت إلى نائل، ثم إلى رائف الذي كان يثبت حافة الورقة بثقل صغير.

«نوماراً؟»

أجاب نائل:

«أرسل أحد ملوك إيفارا إليها شهادة عما حدث لأثيرا. وجدنا إقرار وصولها.»

خرج الاسم من فمه قبل أن يفكر في الغرفة. كان الكاتب قد انصرف إلى الرف، ودارِن عند الباب، ومِهراز يجمع النسخ. رفعت نيرفا عينيها إلى وجهه. لم تسأله كيف يخصه ذلك.

«هل تحتاجون الطريق المباشر، أم طريقًا تستطيع العربات أن تسلكه؟»

قال رائف:

«نحتاج أن نصل جميعًا.»

مدت يدها إلى الرسم، وحددت موضعًا خارج أسوار المدينة.

«إذن نبدأ من هنا. هذا ما سألت عنه أمس.»

نظر نائل إلى يدها. كانت قد خيطت شق الكم بخيط أغمق من القماش، وتركته واسعًا عند المرفق. تذكر أنها عادت من المعبر في قاسران وهي تجمعه بأصابعها، ثم سمعها تسأل دارِن عن تبديل الدواب.

أزاح لها الرقعة لتضع الرسم على المنضدة.

انتظروا حتى انتهى الكاتب. راجع مِهراز الأرقام، وأعاد النسخة إلى رائف ليقارنها بما نقله من الحجرة. حين اتفقا، طوى الحافظ النسخة الأولى داخل غلاف يحمل إذن الملك، وأبقى الثانية مع الأصل.

سأله نائل عن الاسم في أعلى القيد الملكي.

«إيران، مؤسس إيفارا.»

كان قد رآه في سجلات إيفارا القديمة. أعاده في نفسه، ثم نظر إلى الجدار المكشوف. الخريطة التي أخفاها صاحبه، والأثر الذي أخرجه رائف، والشهادة التي أرسلها إلى مملكة أخرى؛ امتدت منضدة واحدة الآن بما وجدوه متفرقًا.

قال مِهراز:

«سنُري أردان ما نعرفه، وما لم نقرأه.»

أخذ نائل غلافه، وسار خلفه.

⁂

كان الملك واقفًا عند النافذة، يستمع إلى ضابط وصل من الخارج. على الطاولة قطعة من حبل قُطع بسكين، وإلى جانبها رقعة مختومة بالطين. انتظروا عند الباب حتى انتهى الرجل من وصف الطريق الذي رآه.

لم يكن جيش زافرين قد بلغ الأسوار. تقدمت فرقة من فرسانه إلى طريق العربات، وأوقفت قافلة قبل وصولها إلى المعبر. رجعت عربتان من القافلة، وبقيت أخرى مع الرجال الذين لم يستطيعوا فك دوابها. كان الحبل المقطوع من إحداها.

أمر أردان بإرسال من يعرفون الأرض ليتبينوا موضع الفرقة، وبإبقاء الحراسة عند الطريق البديل حتى تعبر منه المؤن التي ما زالت قريبة. ثم طلب إلى الضابط أن ينتظر دارِن في الخارج.

اقترب مِهراز بالنسخ.

قرأ الملك أولًا ما ظهر على اللوح، ثم ما أملاه رائف من المواضع المقشوطة. توقف عند اسم نومارا، وقلب إلى قيد الوصول. لم يسألهم سؤالًا حتى أعاد الأوراق إلى ترتيبها.

«وجدتم ما قال إنه أرسله. ماذا قال عن سبب إخفاء الأثر؟»

أشار الحافظ إلى الفراغ في السطر الثاني.

«هنا لا نملك قراءة كاملة.»

رفع رائف رأسه.

«يمكنني العودة إليه بعد أن أرتاح.»

نظر الملك إلى يده التي لم تستقر فوق ركبته، ثم إلى مِهراز.

«هل يحتاج الأمر إلى إخراجه من القاعدة؟»

«الملح يغطي بعضه، والكشط أخذ بعضه. نستطيع كشف ما تحت الملح هنا. أما ما مُحي...»

ترك الحافظ العبارة لرائف.

قال الرجل:

«قرأت الاسم لأن أطرافه موجودة، ولأن القيد وافقه. السطر الآخر أطول.»

دفع أردان الورقة إليه، وأبقى إصبعه على الفراغ.

«إذن نتركه فراغًا حتى تعرف.»

أخرج مِهراز نسخة السطر الذي كشفه الكاتب على ظهر تعليمات الحفظ. طلب أن يقرأ الملك سطرها الأول. قربها أردان من نسخة أمر إبقاء الصورة في موضع الطلب. قرأ أردان بصوت منخفض، ثم رفعه عند منتصف الجملة:

«وإن طُلب جمعها ثانية، فليُعرض ما أبقيتُ للعين، حتى تؤمن البلاد من محو آخر.»

سكت. على الورقة أثر ثنية قطعت آخر حرف من كلمة البلاد، لكن ما بعدها واضح. أخذ نائل النسخة حين مدها إليه الملك، وقرأها من جديد.

قال:

«ونحن نجمعها.»

نظر إليه أردان.

«نعم.»

ارتفع من الساحة صوت باب ثقيل يُغلق، ثم خفت وقع أقدام الرجال في الممر. كان غلاف رائف عند حزامه، وأثر سدرا قريبًا من يدها، وإيسا ورفال ينتظران في الغرفة الأخرى. تذكر نائل يد أوران حين أبعدته عن حجر لم

يعرف ما يحمله، وتذكر العمال خلف جدار قاسران، والصف الذي طال انتظاره أمام البوابة.

وضع الورقة على الطاولة.

«حين فتحنا الطريق، وصلنا إلى أهل ما زالوا هناك. رأينا البيوت، وعبرنا البحر. هذا ما أستطيع أن أقوله لك عمّا نفعله.»

قال أردان:

«وهو لم يترك هذه التعليمات عبثًا.»

«لهذا أريد الشهادة.»

لم يرفع نائل صوته. رد الورقة إلى جانب قيد الوصول، وجعل طرفيهما متساويين.

«أوران عرف كيف نصل إلى ما رآه. مات قبل أن نعرف ما أخفاه هذا الرجل. إن كانت شهادته تقول إن جمع القوى وحده لا يكفي، أو إن في الطريق خطرًا لم نره، نحتاج أن نسمعه قبل أن نفتح أبعد.»

نظر رائف إليه. لم يقل شيئًا، لكن يده انحسرت عن الغلاف حتى صارت فوق ركبته.

سأل الملك مِهراز إن كان يعرف مضمون الشهادة من سجلات أخرى. أجابه أن ما وجدوه يثبت إرسالها وحفظ وعائها، وأن قيد التسليم لا يصف الكلام الذي أُودع فيه. ذكر رقمًا آخر يشير إلى موضعه داخل دار الحفظ، وترك النسخة أمامه.

«يصلون بهذا إلى من يعرفون السجل هناك.»

مشى أردان إلى النافذة. كان في الساحة رجال يفحصون عجلة، وإلى جانبهم عربة ماء تنتظر أن تُفتح لها الطريق. وقفت سيراي عند الدرج، تتكلم مع امرأة تحمل طفلًا نائمًا. أشار الملك إلى رجل من الحرس لينزل إليها، ثم عاد.

«كنت أريد هذه القوة في إيفارا حين يبدأ الهجوم.»

رفع رائف عينيه.

«أستطيع أن أبقى.»

نظر نائل إليه. لم يكن عرضًا ألقي على عجل؛ فك رائف الغلاف عن حزامه، ووضعه أمامه كأن القرار يبدأ من هناك.

قال أردان:

«وماذا تستطيع أن تفعل بها اليوم؟»

أخذ رائف وقتًا قبل أن يجيب.

«أقرأ ما أُخفي، إذا عرفت أين أبحث. وما يلتبس عليّ أحتاج إلى من يقارنه.»

«والأسوار؟»

خفض بصره إلى الأثر، ثم أعاده إلى الملك.

«يحميها رجالك.»

مد أردان يده إلى الغلاف، وأعاده إليه.

«اجلب لنا ما يجعلنا نعرف لماذا يتكرر هذا. مِهراز يبقى هنا، والسجلات هنا. وما تستطيع أن تقرأه في الطريق يصلنا منه ما تقدرون على إرساله.»

أخذ رائف الغلاف. ظل في يده حتى قال الملك لدارِن أن يعد كتاب مرور إلى نومارا، وكتابًا إلى دار الحفظ يذكر فيه رقم التسليم الذي عثروا عليه. لم يصف نائلًا في الكتاب بنسبه. قرأ الصيغة أمامهم، وسمّى رائف حامل أثر إيفارا بإذنه، وطلب تمكينه من فحص الوديعة التي أرسلها مؤسس إيفارا.

حين وصل الكاتب إلى الغرض من الفحص، أملى الملك:

«للتحقق من شهادة محفوظة باسم سلفنا.»

انتظر حتى جف الحبر، وختم الكتابين.

سألته نيرفا عن الطريق الذي سيخرجون منه. فتح دارِن الرسم فوق الطرف الخالي من الطاولة، ووضع إصبعه عند الباب الذي يبقى مفتوحًا للمؤن.

«يخرجون مع العربات الراجعة. بعد المخفر يفترق الطريقان. أعطيهم دليلًا إلى هناك، ودواب يستطيع المصابون ركوبها.»

قال نائل:

«ومَن يرافقنا بعد المخفر؟»

«رجلان إن أردتم، حتى موضع تبديل الدواب.»

وافق نائل. سأل عن وقت رجوعهما، وما الذي يحملانه إلى الملك إذا اضطروا إلى تغيير الطريق. اتفقا على أن يتركا خبره عند المخفر التالي، وأعطاه دارِن اسم المسؤول عنه.

أخرج نائل ورقة صغيرة، وكتبه.

⁂

استغرق الاستعداد يومًا آخر.

قال مِهراز إن رائف يحتاج إلى نوم قبل أن يجرب الأثر مرة ثانية، وقال المعالج إن كتف إيسا يحتاج إلى ذلك أيضًا. كان دارِن يستطيع إخراجهم مع أول العربات، أو إبقاء دوابهم إلى صباح اليوم التالي. اختار نائل أن يبقوا، وطلب أن يُخبره إذا تغير حال الطريق.

في العصر عاد مع رائف إلى منضدة الفحص. أعطاه مِهراز قصاصة أخرى، هذه المرة لم يخبره إن كانت قد كُشطت مرة أم مرتين. حمل رائف الأثر وقتًا أقصر. كتب ما استطاع، ثم غطاه من تلقاء نفسه ودفع الورقة إلى الحافظ.

أخرج مِهراز النسخة المقابلة. وافق بعضها، واختلف حرف واحد في آخر السطر.

قال رائف:

«هذا أكملته لأن الكلمة بدت ناقصة.»

شطب الحرف، وترك مكانه فارغًا.

تفرس نائل في الفراغ الصغير. في الليلة السابقة كان رائف يريد متابعة الخط كلما انقطع. الآن وضع القلم، وطلب الماء.

اختار له مِهراز ثلاث قطع من سجل تجارب الناسخ، لكل واحدة نسخة محفوظة في غلاف منفصل. جعل العلامة على ظهر القصاصة توافق العلامة على غلافها، وأعطاها لنائل.

«لا تُره النسخة حتى ينتهي.»

نظر رائف إليه باعتراض قصير، ثم ضحك من غير صوت.

«وسيصدقك أنت إن قلت إنني لم أنته.»

وضع نائل الأغلفة في جرابه.

«سأسألك أولًا.»

أعاد رائف تثبيت غلاف الأثر. فحص مِهراز الرباط بنفسه، ثم تركه في يده. لم يطلب أن يراه مرة أخرى.

في الخارج كانت سدرا تنتظر قرب الجدار المكشوف. وضعت يدها على طرفه، وسألت الحافظ عن الدعامة التي سيضيفونها بعد رحيلهم. دلها على رسم صغير أعده النجار. صححت موضعًا واحدًا، ثم طلبت أن تُترك الحجارة التي أُخرجت من الحجرة مجتمعة حتى يعرفوا أين كانت.

سألها نائل إن كانت قلقة من تركه.

نظرت إلى الفراغ تحت الجص.

«عرفت كيف نفتح الطريق. أريد أن يظل قائمًا بعدنا.»

جاء النجار، فشرحت له ما تقصده. تركها نائل تتكلم، ومشى مع رائف إلى الساحة.

وجد إيسا عند حوض صغير، تمد أصابعها في الماء لتزيل عنها أثر المرهم. أخرجت يدها حين اقتربا، وسألتهما عن الطريق. ذكر رائف اسم المخفر وموضع تبديل الدواب، ثم فتح الرسم بينهما.

أصغت إليه حتى انتهى. بعدها أخرجت ورقة الدائرة من جرابها الصغير.

«هل تعني دار الحفظ أنهم يعرفون هذه أيضًا؟»

قال رائف:

«نستطيع أن نسألهم. لكن كتاب الملك عن وديعة بعينها.»

نظرت إلى العلامة، ثم أعادت طيها.

«أريد أن يكون السؤال معي.»

قال نائل:

«هو معك.»

أفسح لها موضعًا عند الحوض لتجلس. مدت ساقيها قليلًا، وأبقت الكتف المصابة بعيدة عن الحائط. في الجهة المقابلة كان رفال يجرب رفع كيس إلى ظهر دابة، ويوقفه السائس كلما قرب الحمل من جرح قديم في جلدها.

فك رفال الرباط وأعاده من موضع آخر. نظر إلى إيسا، فرفعت يدها السليمة تشير إلى ارتفاع الحمل. عدله حتى استقام، ثم تركه للسائس يختبره.

قالت:

«السفينة؟»

أجابها نائل بأن دارِن سيبعث خبرًا إلى قاسران مع أول رسول يستطيع العبور. كتبوا اسم الرجلين عند المرسى ووصف الطريق الذي يعرفانه، وطلبوا أن يظل حرس ميرافا يراقبون الخليج. أما موضع الحبال وعلامة الصخرة فتركوها خارج الرسالة العامة.

مدت إليه إيسا ورقة أصغر، كتبت فيها ما يحتاجه من يتولى الحراسة إذا تغير المد.

«هذه لهم.»

أخذها. لم يسألها إن كانت تريد العودة إلى البحر. كانت عيناها تتابعان الدابة التي أعدها السائس لها، ثم تنخفضان إلى الجراب الذي حفظت فيه علامة أبيها.

في آخر النهار جاء دارِن إلى غرفتهم. أخبر نائل أن رسول سيراي عبر موضع تبديل الخيل في طريقه إلى قاسران، وأن الخبر جاء مع ساعٍ عائد من هناك.

لم يصل رد سايرن بعد. سيُرسل إلى مِهراز كما اتفقوا، ويُحفظ لهم إن تعذر إيصاله.

شكره نائل، ثم سأله عن الرسالة التي كتبها بشأن السفينة. أخذها دارِن، ووضع الورقة الصغيرة داخل غلافها قبل أن يختمه.

عند الباب توقف.

«المعالج يقول إنكم تستطيعون الرحيل في الصباح. سأمر عليكم قبل فتح البوابة.»

قال نائل:

«سنكون مستعدين.»

بعد خروجه جلس على الأرض ليرتب جرابه. وضع أوراق نومارا داخل الغلاف الجاف، وأغلفة تجارب رائف إلى جانبها. حين أخرج قماش أوران، وجد فيه حبة رمل صغيرة عالقة في الثنية. نفضها فوق كفه، ونظر إليها في ضوء المصباح، ثم تركها تسقط قرب الحائط.

فتح البوصلة، ومسح حافتها بالقماش. عند المفصل تجمعت ذرة غبار لم يزلها المسح، فبلل طرف إصبعه وأخرجها. أدار الغطاء مرة واحدة ليتأكد أنه يستقيم، ثم أغلقه.

كان رفال يراقبه من طرف المقعد.

«أضعها في الجراب؟»

قال نائل:

«أحملها هنا.»

ثبتها عند حزامه، حيث تصل يده إليها وهو يسير. وضع القماش فوق الملابس، وأعاد ربط الجراب.

⁂

خرجوا إلى الساحة قبل أن ينطفئ آخر مصباح عند الباب.

وقفت الدواب قرب الحوض، وعلى ظهورها الأغطية التي اختارتها سيراي للمصابين. كانت هناك عربتان ستعودان فارغتين إلى القرى بعد إنزال المؤن، وثالثة تحمل أدوات تحتاج إليها حراسة الطريق. جعل دارِن دواب المجموعة بين العربتين الأوليين حتى يبلغوا المخفر.

ساعد نائل إيسا على الركوب. وقف السائس عند الجانب الآخر، وثبت السرج حتى جلست. أبقت يدها المصابة في الحمالة، وأخذت اللجام بالأخرى. جربت الدابة خطوتين، فعرفت مقدار الحركة التي يحتملها كتفها، وطلبت أن تُرخى إحدى الأحزمة قليلًا.

نيرفا ركبت بعد أن سارت في الساحة لتختبر ساقها. لم يمد رفال يده إليها حتى طلبت أن يثبت الركاب. فعل، ثم تنحى حين استقامت. ناولته القربة التي علقها في الجانب البعيد عن يدها.

«هذه أقرب إليك.»

ثبتها إلى حمله، ووقف ينتظر دوره عند الدابة الأخيرة.

جاء مِهراز يحمل لفافة صغيرة. أعطاها لرائف، وقال إن فيها نسخة من رسم القاعدة وقيد الإرسال، وإن النسخ الأخرى أعيدت إلى مواضع يسهل العثور عليها. فتح رائف اللفافة ليراجع آخر رقم، ثم أغلقها.

قال الحافظ:

«حين تصل إلى دار الحفظ، اطلب السجل قبل أن تطلب الوعاء. دعهم يجدون اسمه عندهم.»

«وإن قالوا إنه ضاع؟»

«اسأل متى. ومن كتب أنه ضاع.»

حمل رائف اللفافة إلى صدره. تقدم خطوة، ثم مد ذراعيه إلى مِهراز. ضمه الحافظ، وضرب ظهره بكفه مرة واحدة. حين ابتعدا، عدل له الغلاف الذي انحرف عند الحزام.

كانت سيراي عند أول الدرج. اقتربت من نائل، وفي يدها كيس صغير من الخبز لم تلحق به العربات.

«هذا لما قبل المخفر.»

أخذه، وسألها إن كانت تريد أن يبلغ سايرن شيئًا إن التقوه قبل وصول الرد. نظرت إلى دارِن، ثم إلى الكتاب الذي يحمله رائف.

«أن يكتب حين يستطيع.»

توقفت لحظة، وأعادت طرفًا من القماش تحت رباط الكيس.

«وأن يأكل قبل أن يبرد الطعام. يقول دائمًا إنه سيعود إليه.»

ابتسم نائل. كانت أول مرة يستطيع أن يرى سايرن خارج الممرات والخريطة منذ تركوه في قاسران.

«أقول له.»

جاء أردان من الباب الداخلي، فالتفتت إليه سيراي. كان معه ضابطان، وبيده قفاز لم يرتده بعد. توقف عند المجموعة، وسأل رائف إن كان الغلاف يحمي الأثر من اصطدام السرج. أراه الرجل موضعه، فاختبر الرباط بإصبعه وتركه.

قال الملك لنائل:

«دارِن أعطاك اسم الرجل عند المخفر؟»

أخرج نائل الورقة وأراه إياها.

«وكتاب المرور؟»

رفع رائف الغلاف المختوم.

أدخل أردان يده في القفاز. نظر إلى سدرا وإيسا ورفال، ثم إلى نيرفا. طلب منها أن تُخبر من يلقونهم على الطريق بأن باب إيفارا ما زال يستقبل المؤن والجرحى، وأن أخبار سقوط المعابر لا تعني سقوط المدينة.

أجابت:

«أقول ما رأيته.»

حين عاد إلى نائل، لم يمد له يده فورًا. نظر إلى موضع كان أوران يستطيع أن يقف فيه بينهم، ثم أمسك ساعد الفتى.

«صلوا بما تحملون.»

ثبت نائل يده على ساعده، وأجابه بأنه سيرسل الخبر من أول موضع يأمن فيه على الرسول.

صعد أردان إلى جانب ابنته. من مكانه عند الدابة رأى نائل سيراي تميل نحوه لتسمع ما قاله لها، ثم رأى الضابطين يفتحان أمامه الطريق إلى الساحة الأخرى. تابعت سيراي المجموعة حتى تحركت العربة الأولى.

رفع نائل يده إليها، ومشى.

⁂

عند البوابة طال الانتظار لأن إحدى العربات القادمة كسرت محورًا عند المنعطف. نزل رجال الحرس إلى عجلاتها، وسحبوا الأكياس إلى الجانب حتى تستطيع الدواب أن تخرج من الطريق. بقيت مجموعة نائل تحت ظل البرج، تسمع أسماء القرى التي يرددها الكاتب على الداخلين.

رفع رائف رأسه إلى الشق الضيق بين البرجين. رآه نائل يفعل ذلك، وتذكر ما قاله عند وصولهم عن الناس الذين كان يظن أنهم يصلون جميعًا إلى المكان نفسه.

هذه المرة كان رائف يحمل كتابًا من ملك المدينة، وفي جرابه أثر لم يعرف موضعه حين دخلها. شد الغلاف إلى جانبه حين احتكت به حمولة رجل مار، ثم اعتذر للرجل وأفسح له الطريق.

انفرج الصف. عبرت العربتان، ثم الدواب. عند خارج الباب أوقفهم الضابط ليرى كتاب المرور، وقارن الختم بما يحمله دارِن. أعاده إلى رائف من غير أن يفتحه.

رافقهم دارِن حتى الحجر الذي يتفرع عنده طريق المخفر. كان يستطيع من هناك أن يرى البوابة والراية فوقها. سأل الدليل عن عدد المواضع التي يتوقف فيها قبل الظهر، ثم طلب إلى الرجلين المرافقين أن يعودا بالخبر بعد تسليم المجموعة إلى حراسة الطريق.

قال نائل:

«وإن أُغلق المعبر؟»

أشار دارِن إلى الدليل.

«يعرف طريقًا أعلى يصل إلى المخفر نفسه. لن يعبر بكم الماء بعد المطر. إذا اضطررتم إلى التوقف، تنتظرون خبره.»

نظر نائل إلى الرجل، وسأله إن كان الطريق الأعلى يتسع للدواب. وصف له موضعًا يحتاجون فيه إلى النزول، وآخر يستطيعون اجتيازه تباعًا. استمع حتى انتهى، ثم أعاد عليه موضع اللقاء إن تفرقت العربات عنهم.

وافق الدليل.

ودعهم دارِن واحدًا واحدًا. حين بلغ نيرفا، أعطاها رقعة بأسماء الوحدات التي شوهدت قرب الطريق، فطوتها ووضعتها في ثوبها. رجع إلى المدينة، وبقي نائل يتابعه حتى غاب وراء آخر عربة داخلة.

تحركوا إلى المخفر.

كانت الأرض في أول الطريق مستوية، ثم بدأت ترتفع بين حجارة عارية وشجيرات قصيرة. سار نائل إلى جانب دابة إيسا حتى أخذت طريقها بثبات، ثم تراجع ليرى رفاقه. سدرا تمشي حيث تستطيع أن تختبر الأرض بحذائها، ورفال يحرك كتفه تحت الحزام الجديد، ونيرفا تراقب الجهة التي تختفي فيها الطريق خلف التل.

أما رائف فكان يتوقف كلما أصدر غلاف الأثر صوتًا عند السرج. في المرة الثالثة نزل، وأعاد الرباط من أوله.

قال له نائل:

«سنقف عند الصخرة.»

أشار إلى موضع يتسع لهم، وانتظر حتى وصل المصابون. أعطى إيسا الخبز الذي جاءت به سيراي، وترك لرائف الوقت الذي يحتاجه. حين انتهى، طلب نائل أن يرى غلاف الأوراق.

فتحاه بينهما. قيد الإرسال، والإقرار بالوصول، والنسخة التي حملت اسم نومارا، ثم كتاب أردان. في أسفل ورقة الحجرة فراغ واسع لم يملأه رائف. مر نائل بإصبعه فوقه من غير أن يمس الحبر.

قال رائف:

«سنعود إليه حين نعرف ما أرسله.»

أعاد نائل الأوراق إلى ترتيبها.

«أولًا نجد من تسلّمه.»

من خلف الصخرة جاء الدليل يناديهم إلى موضع التفرع. العربتان ستكملان نحو القرى، وعليهم أن يأخذوا الطريق الذي يصعد إلى المخفر. نظر نائل إلى المسلكين؛ في أحدهما أخاديد عجلات عميقة، وفي الآخر حجارة متقاربة تكاد تخفي أثر الأقدام.

فتح البوصلة.

استقرت الإبرة على جهة تتجاوز الطريقين إلى ما وراء المنحدر. لم يشر بها إلى الدليل. انتقل خطوتين، وسوّاها على كفه، ثم نظر إلى العلامات التي وصفها الرجل وإلى الموضع الذي يخرج منه الطريق أعلى التل.

أغلق الغطاء.

«نصعد من هنا. عند الحجارة ننزل عن الدواب، وننتظر آخرنا قبل أن نتابع.»

مر رفال أولًا ليأخذ لجام دابة إيسا عند الموضع الضيق. تبعته سدرا، ثم رائف وهو يثبت بيده الغلاف الذي يحمل أصل إيفارا. نيرفا تركت بين دابتها والتي أمامها مسافة تكفي للتوقف. سار نائل في الوسط حتى استطاع أن يرى من تقدموا ومن تأخروا.

عند أعلى المسلك التفت إلى المدينة.

كانت رايتها ما زالت فوق البرج. تحتها باب صغير من هذه المسافة، تدخل إليه عربة أخرى. لم ير القصر، ولا النافذة التي وقف عندها أردان، لكنه عرف الجهة التي تركهم فيها.

وضع يده على البوصلة. أحس بالمفصل تحت إصبعه، وبطرف الغطاء المغلق.

وصيّة الحجر

بلاد التيجان السبعة ◆ الجزء الرابع

كل قوة يستعيدونها تفتح طريقًا... وتوقظ سؤالًا.

على أبواب قاسران، يدخل نائل ورفاقه حربًا لا يكفي الانتصار فيها بالسلاح. تحت الممرات القديمة تختبئ أسرار آل فالدار، وبين الحلفاء تمتد حدود الثقة والولاء.

ومن أرض المعادن إلى أرشيف إيفارا، يقودهم البحث عن الأثر إلى ما حاول التاريخ إخفاءه. هناك، يصبح الحجر شاهدا، وتغدو قراءة الماضي أخطر من فتح الطريق إليه.

ومع اقتراب الجيوش، يواجه نائل سؤالًا يغيّر معنى الرحلة: هل يعيد جمع القوى ما مُحي من العالم، أم يفتح الباب لتكرار الكارثة؟

